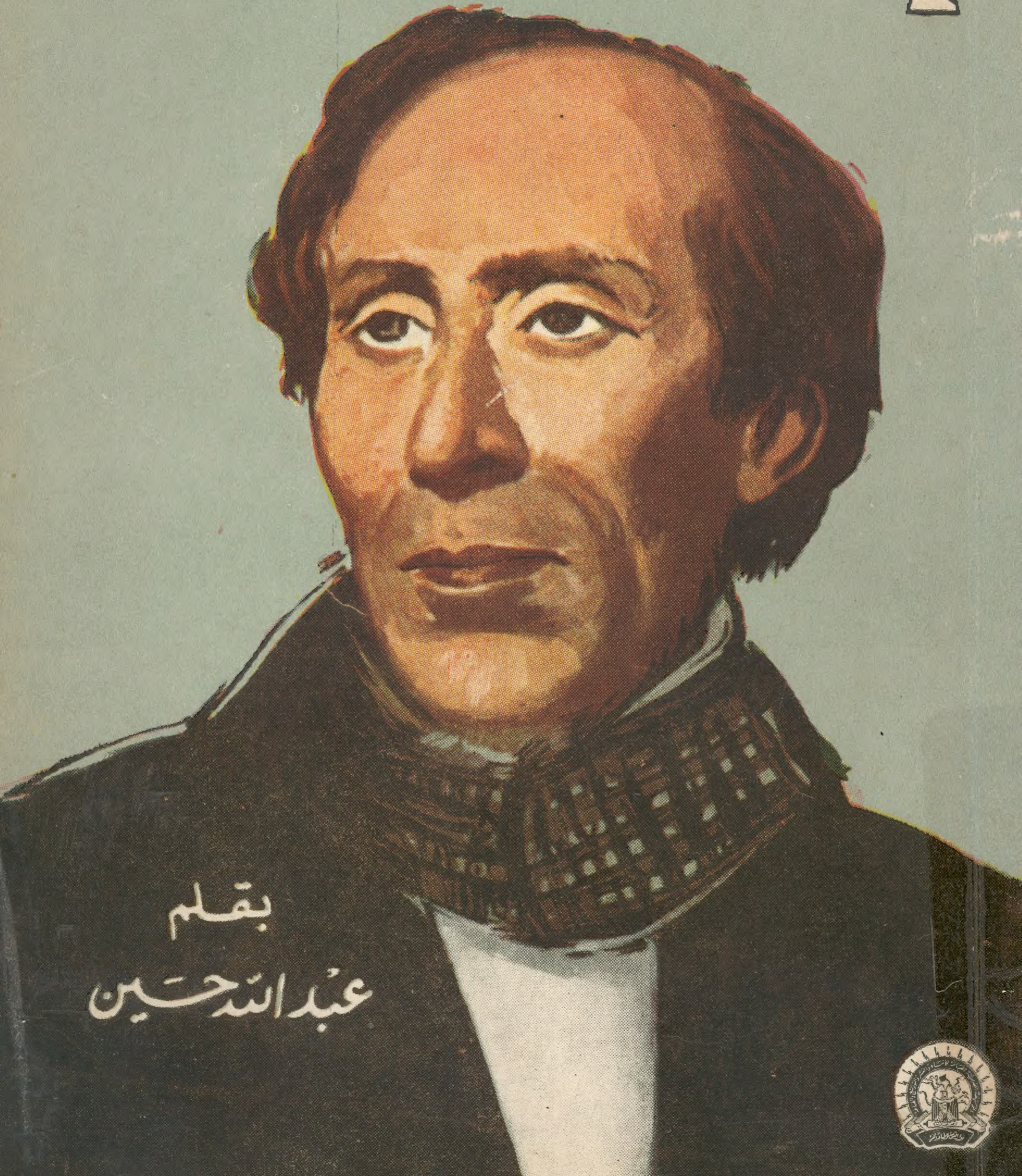


مذاهب وشخصيات

أندرسن

رائد أدب الأطفال



بقلم
عبد الله حسين



مذاهب و شخصيات

اندر كس

رائد أدب الأطفال

بقلم
عبد الله حسين

محتويات الكتاب

- ♦ **الفصل الأول :** حياة هانز كرستيان أندرسن •
- ♦ **الفصل الثاني :** القصص الأسطورية قبل أندرسن وبعده •
- ♦ **الفصل الثالث :** أقاصيصه شرائع من حياته •
- ♦ **الفصل الرابع :** الشاعر الفيلسوف •
- ♦ **الفصل الخامس :** أندرسن حول العالم •

الفصل الاول

حياة هانز كريستيان أندرسن

- × مقدمة •
- × أيام الطفولة •
- × السنوات الأولى في كوبنهاجن •
- × أيام الدراسة •
- × رحلاته وقصصه الأولى •
- × عودة الى المسرح •
- × القصص الاسطورية •
- × اقامته في بيوت الاعيان •
- × الى الخارج •
- × تقدير •
- × ختام القصة

حياة هانز كريستيان أندرسن

« الواقع أن حياتي تبدو لي مثل
القصة الأسطورية ، مملوءة
بالأحداث ، حافلة بمختلف الألوان:
فلقد خبرت الفقر والوحدة والحرمان
وتنقلت بين أبهى الأوساط
وأرقاها ، ولقد مارست المهانة
والتكريم .. »

أندرسن

مقدمة

ان أول ما يسترعى نظر الزائر لمتحف هانز كريستيان أندرسن في
مسقط رأسه (أودنز) هو ذلك العدد الضخم من الطبعات التي نشرت
فيها أقاصيصه بجميع لغات العالم . وليس العجيب في الأمر هو عدد
اللغات التي ترجم إليها أدب أندرسن ، بل ان المسترعى للنظر حقا هو أن
المطابع ما تزال حتى الآن تخرج طبعات حديثة لقصصه .

وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن أعمال هانز كريستيان
أندرسن ما زالت أدبا حيا خالداً تجاوز قيود الزمان والمكان .

ولا يفوت القارئ لهذه الأعمال أن يلحظ ما كان يتسم به أندرسن
من احساس مرهف وأدراك دقيق لكوامن النفس البشرية ، الا أنه يبدو
أكثر انعطافا الى أولئك القابعين في الجوانب المظلمة للمجتمع الانساني ،
لانه كان يحس أنهم صورة للبيئة التي انبثق منها .

وتعتبر تجارب أندرسن الشخصية من أهم العناصر التي تلقى الضوء
على كتاباته ، وكان هو يصرح عادة بأن هذه القصة أو تلك مبنية على
احدى التجارب الكامنة في أغوار عمره ، وما كان أزخر ذلك العصر
بالتجارب والأحداث !

ولقد أدرك أندرسن التفاعل الوثيق بين حياته وفنه فاحتفظ في أمانة
واخلاص بكل شاردة وواردة ، وكل ذكرى يمكن أن تفيد في لقاء الضوء
على حياته . ولا يعنى ذلك أنه اهتم فحسب بتسجيل شهادات التقدير
والاعتراف التي إنهالت عليه في أواخر أيامه من جميع أنحاء أوروبا ، ولكنه
خلف مجموعة من الاجندات والمفكرات الشخصية ، واحتفظ بالحواطر

التي كان يدونها في أسفاره ، بل وبالزهور التي كانت تذكره بالاحداث
الاثيرة الى نفسه .

على أن أهم عون للدارسين لحياة أندرسن وفنه كان تلك التراجم
الذاتية وأهمها « كتاب حياتي » سنة ١٨٣٠ وكتاب « قصتي بدون خيال »
الذي ظهر بالألمانية سنة ١٨٤٧ و كتاب « أسطورة حياتي » الذي صدر
حوالي سنة ١٨٥٥ .

ولقد عرض أندرسن في هذه الكتب قصة حياته التي تضارع أعجب
القصص الاسطورية ، ولن أتعرض هنا للتفاصيل الدقيقة في سيرته فان
هذا يتطلب مجلدات كاملة ولكني سأرسم الخطوط العريضة لتلك الحياة
التي بدأت وسط أسرة معدمة في أحد أزقة الدانمرك وانتهت به وقد
أصبح أعظم كاتب من نوعه في أوربا ومن صفوة كتاب العالم على الإطلاق،
سأرسم هذه الخطوط بالقدر الذي يسلط الضوء على مكانته الأدبية ويعطينا
صورة واضحة لفنه .



أيام الطفولة :

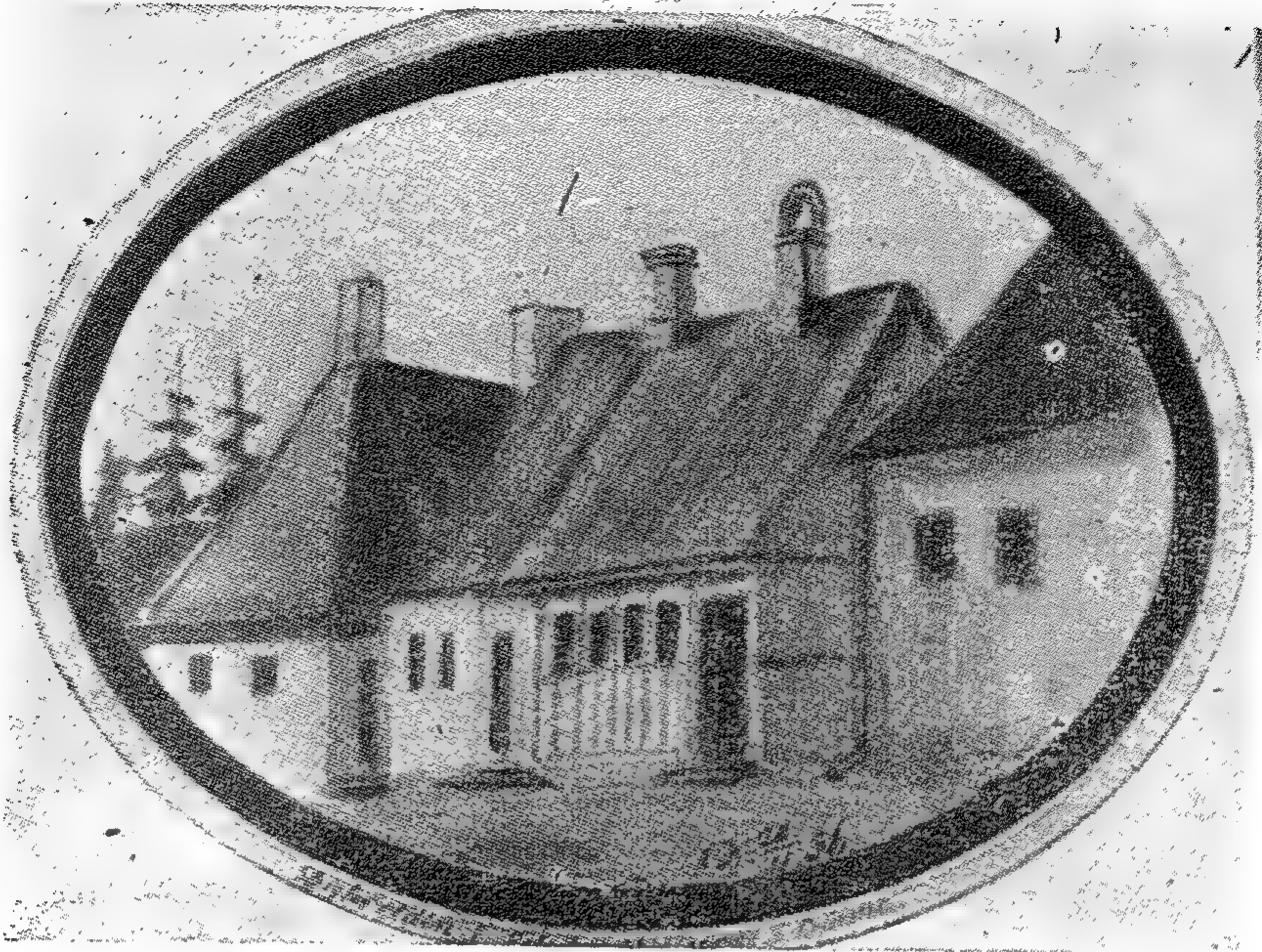
كان عدد سكان (أودنز) في بداية القرن التاسع عشر خمسة آلاف
نسمة ، ومع ذلك فقد كانت هذه المدينة هي ثاني مدينة في الدانمرك ،
كما أنها كانت صورة حقيقية للمجتمع الدانمركي في ذلك الوقت بما فيه
من جوانب طيبة وسيئة .

ففي أودنز كانت المنازل الارستقراطية الانيقة القائمة على الشوارع
النظيفة الممهدة الى جوار الازقة المظلمة والحواري الضيقة الكثيرة التي تعج
بالطبقات السفلى من أصحاب الحرف والعمال الذين يبقون بلا عمل أغلب
أيام السنة . هذا الى جانب جحافل الشحاذين والنساء اللاتي يرتزقن من
غسل ملابس الآخرين .

ولقد كانت الحياة شاقة بالنسبة لهؤلاء جميعا ، ولم تكن المنظمات
الصحية والاجتماعية قادرة على انقاذ مثل ذلك العدد الضخم من وحدة
المرض والفقر .

في قلب هذه الطبقة ولد هانز كريستيان أندرسن في الثاني من أبريل
عام ١٨٠٥ . كان والده يعمل اسكافيا ، وكانت أمه تكبر أباه بخمسة
عشر عاما . وأترك المقام هنا لهانز كريستيان أندرسن ليقدّم لنا صورة
للبيت الذي ولد فيه وأمضى به زهرة أيام الطفولة :

« كان بيت طفولتي يتكون من غرفة واحدة يحتل جزءا كبيرا منها
(البنك) الذي يعمل عليه والدي ، وكان بجوار (البنك) سرير ثم المتكا
الذي أنام عليه . وكانت الجدران مزدانة بمجموعة من الصور الجميلة .
وعلى الرفوف عدد من الفناجين والاكواب الزجاجية وعلى رف آخر بعض
الكتب . وفي المطبخ الصغير رف فوقه عدد من الأواني والصحاف الالامعة .
لقد كانت هذه الغرفة الصغيرة الضيقة تبدو في نظري كقصر متبف بما



بيت الطفولة في (أودنز)

تضيفه على روحى من ضروب التسلية والامتناع • وكانت اللوحات التى تمثل بعض المناظر الطبيعية تعادل - بالنسبة لى - معرضا كاملا من معارض الفنون الجميله •

ذلك هو الاطار الذى احاط بطفولة هانز كريستيان أندرسن كماصوره بنفسه ، وبالنظر الى الاوصاف التى ذكرها أندرسن لوالديه نجد أن بعض الملامح التى تميزت بها شخصية أندرسن الأب قد تسلمت الى طبيعة الابن فلقد كان الاب غير موفق فى حرفته كما أنه فشل فى مواصلة الدراسة ، ولم يكن اجتماعيا بطبعه بل كان ميالا للعزلة ، فكان يهرع كل يوم أحد الى الغابات حيث يجلس صامتا مستغرقا فى تفكير عميق • على أنه برغم ذلك كان يولى ابنه جزءا كبيرا من وقته وحبه فيقرأ له روايات (لافونتين) وشعر شيكسبير ، وقصص ألف ليلة وليلة وهزليات (هولبرج) ، وكان يصنع له اللعب التى كان يلهو بها •

وبينما كانت أمه اجتماعية بطبعها ، تميل الى التعرف الى الجيران ، متواضعة لا تعرف معنى الكبرياء ، كان أبوه الاسكافى مترفعا مكرسا جل وقته وعواطفه لابنه الصغير وكان مغمم النفس بالآمال والأحلام دائم الشرود والقلق •

والتحق الأب بالجيش متطوعا عام ١٨١٢ • ويعزو الابن هذا التصرف

من والده الى التحمس الخيالى لنابليون ، ولكن يبدو أن العامل المادى كان له أثره فى اتخاذ هذا القرار من جانب الوالد .

وفى عام ١٨١٤ عاد الوالد مريضاً محظماً ثم مات بعد ذلك بعامين ، وكان هانز حينئذ قد بلغ الحادية عشرة من عمره . وتبدو الأم - من أوصاف ابنها - امرأة بدينة تنتمى الى الطبقة العاملة . وبينما كان أبوه متأثراً بروح العصر بما تتسم به من معالجة عقلية للمسائل الدينية ، كانت الأم غارقة فى موجة من الحرافات والروحانيات . وبينما كان الأب حالماً شاردا كانت الأم واقعية فى أمور الحياة اليومية ، وقد ترك لها أمر ادارة البيت ، وكثيراً ما كانت تستعين على ذلك بغسل الملابس فى البيوت .

وكان لهانز جد مصاب بالجنون مما جعل الطفل هدفا سهلاً لسخرية الغلمان وتهكمهم .

ويتحدث هانز عن طفولته فيقول : « لقد كنت طفلاً كثير الشرود وكنت أهتم فى الطرقات وقد أغلقت عيني حتى أعتقد الناس أن نظرى ليس على ما يرام برغم أنه كان وما يزال حاداً لدرجة غير عادية » .

وأكثر ما كان يبهجه الجلوس وسط الأشجار تحت الحيمة التى صنعها من أحد أثواب أمه . وكان يتابع بشغف زائد نمو الأوراق الخضراء منذ ظهورها الى أن تسقط صفراء جافة . وأحياناً كان يهرع الى (طاحونة القس) حيث يجلس ساعات طويلة ويحلق فى المياه المندفعة فوق عجلات الطاحونة الهائلة . وكان وهو جالس فى هذا المكان يسرح بخياله فى امبراطورية الصين التى اعتقد أنها فيما بعد النهر ، وفى الأمير الذى سيأتى ليصطحبه الى امبراطوريته . ولقد أكد هانز كريستيان اندرسن فى مذكراته الدور الذى أدته الحرافات والاساطير فى تكوينه الفنى ، ولا ريب فقد عاش طفولته فى جو مشحون بتلك المعتقدات ، وزاد من حساسية الطفل ما كان يلتمسه من فقر ومرض وعجز يظل الوسط الذى ولد فيه ، كما أن زياراته لجدته فى مستشفى الأمراض العقلية ملأت عقله بالرعب الذى كان يخشى معه مغادرة البيت بعد غروب الشمس .

كل هذه العوامل خلقت من الطفل الموهب انساناً غريب الأطوار وأبعدته عن زملائه فى المدرسة وجعلت أيام دراسته قاسية مريرة ، وخاصة أنه لم يكن ينجو من عقاب أمه لعجزه عن مساعدتها - أسوة بسائر الاطفال - بالعمل فى أحد المصانع . ولقد حاول الصبى أن ينصاع لرغبة أمه ، ولكن طبيعته الحساسة لم تحتمل ما فى هذه الاماكن من عنف وقسوة وفساد ، فلم يكن يبقى بالمصنع وقتاً طويلاً حتى يتركه الى آخر للأسباب نفسها .

كان البيت اذن خير مكان يجد فيه سعادته ، فهناك فى مقدوره أن يبلى نفسه بمسرح العرائس الذى صنعه أبوه من أجله . ولقد ازداد شغفه بالمسرح منذ أن شهد مع والديه عرضاً لاحدى الاوبرات على مسرح (أودنز) . وفى المسرح أحس هانز أنه يشرف على عالم جديد ، ولم يكف هذا العالم عن جذبه من قلب الواقع الذى يعيش فيه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

ومهما حاولنا أن نحرر أنفسنا من الصورة المثالية التي رسمها هانز كريستيان أندرسن لطفولته ، فإن هناك صفة واحدة لا يمكننا أن نتجاهلها وهي صفة الطفل الخالم : الطفل الخيال الذي كان يسعى الى انثقال نفسه من هذا الجو الذي فتح عينيه فوجده مطبقا عليه من كل جانب ، الطفل الذي يشق نقة لا يتطرق اليها الشك في العناية الالهية التي سوف ترعاه وتحقق له ما ينبغي . ولقد ساعده هذا الايمان في التغلب على الصعاب التي اعترضته طوال سنى عمره .

وشملت الأم والجدة في الوقوف أمام هذا التيار المبتثق من بين حنايا الغلام ، ويثستا من توجيهه الوجهة التي تبغيانها ، وبعد أن تزوجت الأم مرة أخرى سنة ١٨١٨ أخذ هانز يبحث عن الأجواء التي تساعد على تحقيق أحلامه .

وسمع في بيت السيدة (بنكفولد) - إحدى الجارات الجدد ، وكانت مثقفة - كلمة «الشاعر» تتردد على الألسنة بشيء من الاطراء والتعظيم . وفي هذا البيت رأى هانز من الكتب أكثر مما كان يدور بخياله ، فأخذ يستعير منها ما يشاء . وكان أكثر ما يجذبه الى هناك هو العطف والتشجيع اللذين لم يعرفهما بالمدرسة أو في أى مكان آخر . وأخذ ينصت بأذن واعية الى قراءات السيدة « بنكفولد » التي حوت الفنون الادبية كافة وبخاصة الشعر والمسرح .

وأكثر هانز من التردد على بيت السيدة (بنكفولد) ووجد لديها الرى الذي كانت تتوق اليه نفسه العطشى ، وبدأ يدرك أنه لكي يكون عظيما «مشهورا» فلا بد له من أن يصبح شاعرا . كما تفتحت أمام روحه نوافذ كثيرة على العالم الأثير لديه - عالم المسرح - وما أن أحس بأن الطريق قد بدا واضحا حتى قر قراره بسرعة فيما يتعلق بمستقبله وهو أنه لن يحقق أيا من آماله اذا ما بقى فى أودنز ، وأنه لن يصبح «مشهورا» الا اذا سافر الى كوبنهاجن .

وفى اليوم الأول من سبتمبر عام ١٨١٩ ودع هانز أمه وجدته ورحل نحو المجهول ، ولم يكن معه سوى بضعة شلنات وحصيلة من تجارب الطفولة .



السنوات الأولى فى كوبنهاجن :

ترك هانز كريستيان أندرسن مسقط رأسه الى كوبنهاجن التي لم يكن يعرف فيها أحدا سعييا وراء آماله وأحلامه ، فلا غرو اذا وجدناه يناضل بكل قوة حتى لا يضطر الى العودة الى أودنز مرة أخرى ، فالموت كان أهون عليه من ذلك .

وكان للدانمرك فى تلك الفترة مسرح قومى له فرقة الخاصة من الممثلين وملحق به معهد للغناء والموسيقى المسرحية ومعهد لرقص الباليه كلها تستكمل مواردها المالية من خزانة الدولة . وكان هذا سببا مباشرا

فى نهضة الآداب والفنون فيها • فلم يكن يمثل على خشبة هذا المسرح الملكى الا احسن ما تنتجه قرائع الكتاب والمؤلفين والشعراء ، ولا يقوم بالتمثيل والغناء والرقص فيه الا افضل الممثلين والمطربين والراقصين والراقصات ، ولا يرسم له المناظر الا انبغ الرسامين •

وهكذا كان هذا المسرح هو المركز الذى يجذب اليه الفنانون والأدباء من جميع أنحاء الدولة ، ولكنه فى نظر هانز كان أسمى وأقدس من هذا .. كان كعبة يضرع الى الله أن يحقق له الآمال فى أن يصبح أحد حجاجها المخلصين •



المسرح الملكى بكوبنهاجن

وقبل أن يرحل أندرسن استطاع الحصول على خطاب توصية من (افرسن) وهو صاحب مطبعة فى أودنز الى مدام (اسكال) راقصة الباليه بالمسرح الملكى • وذهب هانز لزيارتها وأوضح لها رغبته فى اعتلاء خشبة المسرح ، ثم طلب منها السماح له بعرض شيء من فنه واندفع يخلع حذاءه ويرقص لها رقصه من (سندريلا) ، وكان قد رأى مدام اسكال تقوم بهذا الدور عندما انتقلت فرقة التمثيل بالمسرح الملكى الى مدينة أودنز ، وخطر له أن قيامه بهذا الدور سوف يرضيها ، ولكن المنظر كان كفيلا بأن يصيب السيدة بالذهول والرعب اذ أن أندرسن كان يتكلم بصوت مرتفع ويأتى بحركات مهولة وتعبيرات لاوجه رهيبه ، وكان يشب بالغرفة وثبات تهز أركانها • فظنت السيدة (اسكال) أن بالفتى مسا من جنون ، وما كان منها الا أن أمرته بالتوقف ثم طردته من بيتها على الفور •

ولم يتطرق اليأس الى هانز بعد هذه الصدمة برغم أنها هزته هزا

عنيفا . وكان اقرسن المطبعى قد اخبره بالتوجه الى مستر رايبك ، أحد مديري المسرح - اذا لم يوفق لدى مدام اسكال ، فنفض هانز الاحساس بالآلم وبدأت الآمال تنتعش في صدره حين قرر أن يعمل بهذه النصيحة . على أن تلك الآمال انهارت جميعا من أساسها بعد خمس دقائق من مقابلته لمدير المسرح الذى طرده شر طردة أيضا .

ووجد هانز نفسه خاوى الوفاض بعد أن نفذ آخر شلن فى جيبه ، وكان عليه بعد الاسبوعين اللذين قضاهما فى المدينة الكبيرة - دون جدوى - أن يختار بين أمرين : إما أن يعود أدراجه أو يعمل صبيا فى إحدى الحرف . وكان قد انتوى بينه وبين نفسه ألا يعود حيا الى أودنز ما لم يحقق الآمال التى غادرها من أجلها .

وفى ١٨ من سبتمبر قرأ فى إحدى الصحف اعلانا يطلب فيه أحد النجارين فتى فى مثل سنه ، فسعى اليه ولكنه أدرك منذ اليوم الاول أن الجو المحيط به هو الجو العفن الذى كان يخلق أنفاسه فى مصانع أودنز: القسوة نفسها وسوء الحاق نفسه فأسرع هاربا برغم الجوع والافلاس اللذين ينتظرانه خارج الباب .

وترك هانز محل النجار ، وذهب فى اليوم نفسه يطرق الباب على (سيبوني) المغنى الايطالى فى المسرح الملكى . وبرغم أن سيبوني كان يستقبل ضيوفا فقد أمر لحسن حظ أندرسن - بادخال الفتى . ووجد أندرسن نفسه وسط باقة من قادة الحياة الثقافية فى الدانمرك: (سيبوني) المغنى الاول والموسيقار الكبير (وايز) ثم الشاعر الملهم (باجيسين) .

ويبدو أن العناية الالهية التى لم يكن أندرسن يشك فيها لحظة واحدة كانت على موعد مع الفتى المؤمن لتفتح له - ولأول مرة منذ قدومه الى كوبنهاجن - بابا واسعا نحو المجد ، لقد كانت تلك الزيارة التى قام بها أندرسن وهو يتأرجح بين اليأس والأمل من نقط التحول الهامة فى تاريخ حياته ، فقد استطاع الفتى ذو الاربعة عشر عاما أن يلتقى بالعالم (بفتح اللام) الذى طالما كان يحلم به . ولم تنته تلك الزيارة الا بعد أن وعده (سيبوني) بتدريبه على الغناء ، ومنحه (وايز) بعض النقود التى كانت عوناً له لفترة ليست قصيرة .

على أن الطريق لم يكن مفروشا بالورود من أوله ، بل لقد واجهت هانز عدة صدمات متوالية . كانت أولى هذه الصدمات اعتذار سيبوني عن الاستمرار فى تعليمه الغناء لانه لم يجد لديه الموهبة التى يمكن أن تخلق منه مطربا ، فضلا عن أن برد كوبنهاجن القارس ، الذى لم يستطع هانز أن يحصن نفسه ضده ، قد أصاب أوتار صوته فضاغ بذلك آخر أمل له فى هذا المضمار .

... ولم يترنح هانز تحت هول هذه الصدمة ، بل اتجه بعناد واصرار غريبيين الى التمثيل بعد أن جرب حظه في الغناء . واستطاع بعد لائى أن يجد من يسند اليه بعض الأدوار الثانوية ، ولكن (لندجرين) الذى كان يقوم بتدريبه على التمثيل قال له بعد عام ونصف العام : « لا شك أنك تنطوى على احساس مرهف ، ولكنك لم تخلق لتصبح ممثلا - السماء وحدها هي التى تعلم ما خلقت له ، » وفى مايو سنة ١٨٢٢ فصلته ادارة المسرح .

وهكذا بدا الطريق الى المسرح مغلقا فى وجهه . . فانكفا يسترجع هوايته القديمة التى لزمته منذ الطفولة ، وهى الكتابة وقرض الشعر . وبحث فى حاجاته عن بطاقة أبيه الخاصة بصرف مكافأته عن مدة خدمته بالجيش ، وكان هانز قد دون فى تلك البطاقة قائمة بما سيؤلفه فى المستقبل من القصص والروايات . ولما لم يكن قد ألف المسرحيات نفسها فقد كان يكتفى بقراءة أسمائها بصوت مرتفع لكل من يجد لديه استعدادا للانصات . . وكان ينظم الشعر أيضا .

وفى الدأب والمثابرة نفسيهما استمر يسمى نحو « المجد والشهرة » ووسيلته - فى هذه المرة - الشعر والأدب ، فكتب سنة ١٨٢٢ مسرحية (لصوص فيزنبرج) التى بنى فكرتها على بعض العقائد الشعبية التى لمسها فى فسقط رأسه ، وقدم هانز هذه المسرحية الى مديرى المسرح الملكى الذين أعادوها اليه مع الخطاب التالى :

الى مؤلف المسرحية . . .

نعيد اليك مسرحيه (لصوص فيزنبرج) لعدم صلاحيتها للمسرح ، وان الرقباء الرسميين يحبون أن يخطروا المؤلف - بسبب ظروفه الخاصة - أن كل صفحة فى مسرحيته دليل على مبلغ جهله بالمبادئ الأساسية للعلم والثقافة ، فمن المستحيل تماما على أية عبقرية انسانية أن تقدم مثل هذه المسرحية الى جمهور مثقف على خشبة المسرح ، وأنهم يشعرون بالسرور اذا أدرك المؤلف الشاب أن الواجب يحتم عليه الاستعانة بأصدقائه لمواصلة الدرس والتحصيل ، والتزود من نبع الثقافة التى بدونها لن يستطيع أبدا أن يحقق الهدف الذى يسمو اليه . .

والواقع أن المشكلة الأساسية فى حياة أندرسن كانت فى تلك الفترة هى النقص الشديد الذى يعانى به فى التعليم المنهجي المنظم . ان أندرسن حتى ذلك الحين لم يبق بأية مدرسة شهرا كاملا ، وكل ما كان ينظمه من اشعار أو يكتبه من قصص ومسرحيات كان بأسلوب ردىء وبطريقة فطرية زاخرة بالأغلاط . لم يكن أندرسن حتى ذلك الوقت يستطيع أن يتهجى أو يكتب بضع كلمات كتابة صحيحة ، أو يقسوم بأصغر عملية حسابية برغم أنه كان يلتهم أى كتاب يقع فى يده ويحفظ عن ظهر قلب صفحات عدة منه ومناظر كاملة من المسرحيات .

ولم يستسلم أندرسن لخيبة الأمل التي أصابته بعد قراءة ذلك الخطاب ، وسرعان ما تنبه الى الاخلاص الكامن بين سطورهِ والى روح العطف والاهتمام التي تختفي وراء كلماته برغم القسوة التي قد تبدو فيها للوهلة الأولى

وجدت النصائح أخيراً صدى في نفسه ، كما لمس مديرو المسرح الحيرة التي غرق فيها الصبي بعد أن حفيت قدماء وهو يطرق أبوابهم دون مایأس أو ملل ، فانعطفت قلوبهم اليه . وتحمس له أحد المديرين وهو (رايبك) أعظم النقاد في ذلك الوقت ، فأوصى باتاحة الفرصة بتعليمه وتثقيفه . وقام المستشار (جوناس كولین) وهو من مديري المسرح أيضا بالتوسط لدى ملك الدانمرك الذي وافق على تزويده بالثقافة اللازمة . وأخبره كولین أنه سيرسل اليه في كل أسبوع مبلغا خاصا ليشتري منه بعض الملابس والكتب ويحتفظ بالباقي لنفسه ، وأنه سيتعلم بالمدرسة الثانوية بمدينة (سلاجلس) بالمجان . ذهب هانز كريستيان أندرسن الى (سلاجلس) ليجلس - وهو في السابعة عشرة من عمره - بين تلاميذ الفرقة الأولى بالمدرسة الثانوية .

أيام الدراسة :

قبل أن يصبح هانز كريستيان أندرسن تلميذا في مدرسة سلاجلس كان (سيمون ميسلنج) قد عين ناظرا لتلك المدرسة ، وكان ميسلنج ذا شخصية متناقضة غريبة الأطوار ، فالى جانب كفايته كمدرس كانت تصرفاته تتسم بالقلق والتوتر والخشونة ، كانت له - باختصار - عقلية العالم وطباع الحيوان الشرس . ولم يكن هانز كريستيان أندرسن يدري أنه مقبل في علاقته الجديدة مع الناظر ميسلنج على صفحة من أحلك صفحات حياته .

الحق أندرسن بالصف الثاني من المدرسة ، وفي أول يوم من أيام الدراسة وجد نفسه في وضع عجيب ، لقد كان أطول تلميذ من زملائه لا يصل برأسه الى مرفقه . . . حتى انه كان يبدو بينهم بطوله الفارع مثل (خيال الماتة) وسط عيدان القمح الهشة . ولیت الأمر وقف عند هذا الحد ، فانه كان - وهو بهذه الهيئة - يضرب أخماسا في أسداس ويتلجلج لسانه عند أبسط الكلمات وأسهل المسائل الحسابية التي كانوا هم يحلون بها بعقولهم الفضة في لمح البصر . لقد كان عقله خاليا تماما من أصغر البديهيّات والمعلومات الأولية .

ويصف هانز الأيام الأولى بالمدرسة قائلا : « كانت رغبتي للعلم موفورة ، ولكنني كنت في أول الامر أتعثر وكأنني غريق في بحر ، ترفعتي موجه ، وتهبط بي أخرى ، قواعد اللغة . . الجغرافيا . . الحساب . .



سيهون ميسلنج

وكان الموقف عصيبا ، فان عليه أن يعمل بأقصى ما يمكن لكي يلحق
بهؤلاء الصغار الذين شاء القدر أن يصبحوا زملاء له ، وبرغم أن (ميسلنج)
لم يكن يلجأ الى العقاب الجسماني لم تكن تعوزه الحيلة التي ينكل بها بكل
تلميذ لا يروقه . ولقد غدا اندرسن قبل مضي وقت طويل هدفا لسخرية
الناظر ونكاته اللاذعة التي كان يدمي لها قلبه الصبي المرهف .

ولم يستطع هانز أن يدرك سر تحامل الناظر عليه وكراهيته له .
والواقع أن (ميسلنج) كان يحسد الصبي - وهو التلميذ الصغير - على
ما يلقاه من رعاية مديري المسرح الملكي له وعلى اتصاله بأهم رجالات
كوبنهاجن ، مما كان لا يحلم به الناظر نفسه .

ومضت به الأيام عاصفة مفعمة بالكفاح ، الكفاح من أجل رسالته
الجديدة ، والكفاح ضد السيطرة القاسية التي سادت حياته في (سلاجلس)
وأخذ هانز يكتب الى مستر كولن - الذي كان له بمثابة الأب الروحي -
عن تقدمه في الدراسة . والواقع أنه كان يبذل جهدا فائقا لدفعه عزيمة
جبارة : « حتى لا يظن أنني أضيع أموال الحكومة عبثا » .

وكانت حياة أندرسن في تلك الفترة خليطاً من السعادة والبؤس ، فقد كان منتهى سعادته أن تنفرج له شفتا مستر ميسلنج عن ابتسامه صغيرة ، أو تبدر منه كلمة عطف واحدة ، على حين كان يسقط في وهدة الشقاء اذا ما انهل عليه ميسلنج بلسانه السليط .

وكتب أندرسن في مذكراته يقول : « لقد قال لي الناظر « مساء الخير » .. لو ان يعلم الى اى مدى تشجعني اقل امارات عطفه .. كانت سترة الناظر مغبرة ، فطلب من الخادم احضار (الفرشاة) ولكنها لم تحضر ، فهرعت الى تنظيفها بنفسى .. » ومن جراء هذه الأيام المشحونة بالقلق والخوف والمهانة فان ثقته بنفسه التي أطلقت كالصاروخ الى قلب أرقى الأوساط الاجتماعية والثقافية في كوبنهاجن - هذه الثقة تحطمت تحت الضربات القاسية التي تلقاها في (سلاجلس) . وغدا يحمل بين جنبيه نفساً مهلهلة تعسة .

وحتى عام ١٨٢٥ كان هانز يعيش في بيت أرملة في سلاجلس ولكنه انتقل بعد ذلك ليعيش في بيت ميسلنج ، لأن السيد ميسلنج ادرت الفوائد المادية التي تكفي وراء سكنى هانز معهم . ولم يشأ هانز أن يرفض هذا الطلب من الناظر ، وخاصة أنه كان يأمل أن يكون مثل هذا الاجراء بداية مرحلة جديدة من تبادل الثقة بينهما . ولكن لما كان بيت الناظر ليس كبيراً الى الحد الذي يسع معه ضيفاً جديداً فان انتقال هانز اليه لم يساعد الا على زيادة تعقيد حياته .

على أن أيامه في سلاجلس لم تكن تخلو من بعض الهناءة ، فبفضل مقدرة أندرسن الفائقة على ربط الوشائج والصدقات تعرف على الشاعر (انجمان) الذي كان يقوم بالتدريس بجامعة (سورو) القريبة من سلاجلس . ووجد هانز في بيت (انجمان) مرفأ الأمان الذي كان يلجأ اليه هرباً من حياته العاصفة في البيت والمدرسة .

وبالإضافة الى ذلك كان في مقدوره أن يقضى عطلاته خارج سلاجلس فقد ذهب الى أودنز سنة ١٨٢٣ وأقام في ضيافة (افرسن) المطبعي ، وكان أثره على الجميع هناك كبيراً اذ بدا لهم شخصاً آخر غير ابن الاسكافي الذي كان متهما بالجنون . وفي عطلة عيد الميلاد سنة ١٨٢٣ سافر الى كوبنهاجن وقضى بها أسبوعاً ضيقاً على الكابتن وولف المترجم المشهور . وكان وهو واقف في شرفة القصر مطلاً على الميدان الكبير يحس كأنه في حلم لذيذ قصير سوف ينهض منه فزعاً ليرى أمامه مستر (ميسلنج) البدين ذا الوجه الأحمر المكتنز والظل الثقيل . وكان يتردد كثيراً في تلك العطلة على منازل كولن ورايبك ويشهد الروايات التمثيلية على خشبة المسرح الملكي ..

وفي ربيع سنة ١٨٢٦ نقل الناظر الى (السينور) ، وأخذ يغري هانز بالذهاب معه واعداً آياه باعطائه دروساً خاصة في اللغتين اليونانية واللاتينية ليناعونه على اجتياز الامتحان - ولم يجد هانز بداً من الذهاب .

على أن بقاءه في السينور لم يكن سوى امتداد لمرحلة العذاب التي

كان غارقا فيها في سلاجله . فبالإضافة الى شراسة الناظر ومسوره معاملته لا تدرسن فان الجشع استبد بزوجة الناظر وأحسنت تظلم من صالة المبلغ الذي يدفعه لهما الصبي نظير اقامته . وأصبحت لا تضع له الا قدرا يسيرا من الطعام لا يكفى اقامة أوده . كما أنها حرمته وسائل التدفئة التي تحمي جسده التحيل من البرد القارس . وكتب هانز الرسالة تلو الأخرى الى مستر كولن يرجوه أن يتفقه مما هو فيه . ولكن كولن اعتقد أن هانز يبالي بعض الشيء فيما ذكره . ثم تصادف أن لمس أحد المدرسين عندما رآه هانز مرة ما يلقاه الصبي من عنيت واضطهاد . فلم يملك الا أن يبعث برسالة عاجلة الى مستر كولن يصف له فيها الجو الذي



مستر كولن

يعيش فيه هانز ، فأرسل مستر كولن لهانز يأمره بالرحيل فوراً من
السينور . وفي إبريل سنة ١٨٢٧ ودع اندرسن (ميسلنج) وانتقل إلى
كوبنهاجن حيث وضع تحت الرعاية الخاصة . وفي أكتوبر سنة ١٨٢٨
اجتاز الامتحان النهائي .

ونان كوبن يعرف ماجبل عليه أندرسن من ميل طبيعي للكتابة ،
فحاول أن يحضه على الالتفات إلى دراسته وترك الكتابة بعض الوقت .
ولكن ذلك الطلب كان أمراً صعباً بطبيعة الحال ، فالكتابة بالنسبة
لأندرسن كانت تصرفاً غريزياً لا يجدى معه النصح ولا التحذير . ولقد
أخرج اندرسن أيام المدرسة عدة قصائد لعل أهمها قصيدة (الطفل
المحتضر) التي لاقت استحساناً كبيراً بعد أن نشرت بدون توقيع في
صحيفة (ذي كوبنهاجن ميل) سنة ١٨٢٧ . ولقد كانت هذه القصيدة
صادرة من أعماق نفسه إذ كتبها في تلك الأيام الحافلة بالألم والبؤس
والشقاء التي أمضاها تحت سقف بيت ميسلنج . ويقول الدارسون :
إنها أول شيء كشف عن روح الشاعر الكامنة بين جنبى هانز كريستيان
اندرسن ، والقصيدة منشورة في مكان آخر من هذا الكتاب . (انظر
الفصل الرابع) .

وما إن أفلت اندرسن من تحت سيطرة ميسلنج حتى بدأت
شخصيته تتغير تغيراً ملحوظاً ، وانطلقت نفسه من عقالها وألقى عنه رداء
البؤس وفتح قلبه للحياة . وكان أول ثمرة أخرجها في تلك الفترة كتاب
(رحلة على الأقدام من قناة هولمز إلى الجانب الشرقي من أماجار) وهو
عبارة عن مجموعة من الأشعار المرحية وأخلاق من الأفكار والخواطر .

وفي سنة ١٨٢٨ كتب أولى مسرحياته (غرام نوق برج القديس
نيقولا) وقد عرضت هذه المسرحية على خشبة المسرح الملكي في إبريل
سنة ١٨٢٩ . وأحس هانز بعد هذه الأعمال المتوالية أنه خلق ليكون
شاعراً ، وحالت طبيعته القلقة وعقليته الخيالية دون احساسه بالمقدرة على
الاستمرار في الدراسة .

وفي صيف ١٨٣٠ قرر اندرسن أن يشد عصا الترحال إلى ربوع
الدانمرك بادئاً جولته بزيارة أودن. منقط رأسه حيث أمضى أياماً ممتعة
في ضيافة المطبعي العجوز افرسن ، ثم عرج على جزيرة جوتلاند حيث
التقى بالمؤرخ الشهير (سيمونز) ليستعين به على كتابة رواية عن قبائل
الفجر وتاريخهم . وواصل اندرسن رحلته بعد ذلك إلى مدينة (فابورج)
وهي بلدة صغيرة على شاطئ البحر بالجزء الجنوبي الجميل من جزيرة
(فونين) . وفي هذه المدينة - حيث كانت تقطن أسرة زميل له - عاش
اندرسن تجربة لم تبرح ذاكرته مدى الحياة ، فقد كان لزميله هذا ، وهو
ابن أحد التجار بالمدينة ، شقيقة بارعة الجمال لطيفة المعشر تدعى
(ريبورج) . وما كاد اندرسن يراها ويتحدث إليها حتى غرق في حبها
لأذنيه .



ريبورج

وفي متحف هانز كريستيان أندرسن مجموعة من الذكريات التي تسجل هذه الحادثة : فهناك باقة من الزهر مدون عليها بخط ريبورج ان أندرسن قدمها لها في اغسطس سنة ١٨٣٠ كما ان هناك أيضا مجموعة كبيرة من القصائد الغنائية التي بعث بها أندرسن لريبورج والتي كانت ارماسا جديدا لشاعر مرهف الحس بعد قصيدته الرائعة « الطفل المحتضر » وما زال النقاد يعتبرون قصائد : « عينان عسلتان » و « أحبك » وغيرهما من قمم الشعر الدانمركي حتى الآن .

وكانت ريبورج مخطوبة لابن صيدلي بالمدينة ، ولكن يبدو ان الفتاة

قد أعجبت باندرسن وبهرها حديثه عن نفسه وآماله وما ينتظره من مجد وشهرة . . . ولعل أكبر دليل على تعلقها به هو العناية والحرص الشديدان اللذان أولتهما كل ما يذكروها بالشاعر الشاب .

وسرعان ما قرر أندرسن العودة . . . وأخذ يعمل على تناسي الصدمة التي منى بها قلبه ، فكتب مسجلاً الحادثة في مذكراته : « لقد كان غباء مني وأنا الرجل الفقير أن أقع في الحب . لا مراء في أن لديها ثروة تكفيني معا . ولكن ماذا كان الناس سيقولون عني ؟ »

ولقد التقى بريبورج عدة مرات بعد ذلك وكتب بعد إحدى هذه المرات : « ان الدكريات لحبات العنبر الأصيل كلما حككتها أرسلت من عطرها القديم شذا » . وكانت آخر مرة لقيها فيها في سنة ١٨٤٣ عندما كان نجمة في صنعود . وعقب ذلك اللقاء عاد إلى البيت وكتب قصة « الكرة والحذروف » التي كانت « وداعا ساخرا لغرام صباه » . (انظر الفصل الثالث)

وفي سنة ١٨٣١ قام بأول رحلة له إلى الخارج ، فسافر إلى ألمانيا حيث وجد عالماً أرحب وأكبر ، وتحول في أبهاء الكاتدرائيات الفخمة المشيدة على الطراز القوطي . وهنا في هذا الجو الجديد استعاد انبساطه وثقته اللذين ساعده على ربط الوشائج واكتساب صداقات جديدة مثلما كان في كوبنهاجن . فسرعان ما غدا صديقاً لادلبرت فون شاميسو الكاتب الألماني وقد كانت نتيجة هذه الرحلة كتاباً أسماه « أطياف وصور » سنة ١٨٣١ .

على أن الفترة ما بين سنتي ١٨٣١ و ١٨٣٣ كانت من الفترات الحرجة بالنسبة لاندرسن ، فإن المرح الدافئ الذي كانت تتسم به شخصيته في السنوات الماضية كان قد زائله ، وأخذت تظهر في خطابه أمـارات الوحدة والكتابة : ففي خطاب له إلى صديقه ادوارد نجل (كولن) سنة ١٨٣٢ - وكان في أودنر حينئذ - كتب يقول :

« الناس حولي يبذلون كل ما في وسعهم لارضائي ، فأكبر العائلات تمنحني كل اهتمام ورعاية ، ولكن لا فائدة . ولست امرأة شاذة يهوى أن يكون ساخطاً ، فأننى أتمنى أن أكون سعيداً ، ولكننى لأستطيع مطلقاً أن أستعيد السعادة والمرح اللذين عرفتهما في صباى ، وبعد ذلك بـ ستة شهور كتب يقول : « لقد طرأ على حياتى كثير من الاحداث فى غضون العام الماضى فاما ان أتغير الى الافضل ، والا فقد ضاع كل شىء . ان حياتى كشاعر لم تكن سوى نجم منطلق سوف يطويه النسيان فى أسرع وقت . »

ويقول مرة « لقد كنت أقف وحدى منذ أن كنت طفلاً حتى الآن » . ويقول مرة أخرى في خطاب له إلى مستر (كولن) : « مهما كان عطف الناس على فساظل «مقطوعاً» .

وكان يكمن وراء كل هذه الخواطر احساسه بعدم الاستقلال ،
وخوفه من أن يشعر الذين مدوا له يد المساعدة بخيبة الأمل في كل
ما فعلوه من أجله ، الخوف نفسه الذي لازمه كالفصاة في الحلق طوال أيام
دراسته . وفي أثناء تلك الفترة أخذت تحتل أفكاره (لويز) ابنة
مستر (كولين) ، فكان يبعث لها ببعض الرسائل والقصائد الغزلية ،
ولكن شقيقتها (انجبرج) طلبت منه أن يكف عن ارسال مثل هذه
الأشياء لأن هذا لا يتفق مع ما أخذت به العائلة نفسها من تقاليد .
ولقد كان هانز يريد أن يمر بتجربة تلهب فكره وخياله وتوحى له ببعض
الانطباعات التي لا يستطيع الفنان أن يعيش بدونها .

وتمكن أندرسن من الحصول على منحة يستطيع بها القيام بعدة
رحلات الى الخارج ، فأعد خطة لزيارة فرنسا وإيطاليا .

واستطاع وهو يضرب بين ربوع البلاد أن ينظر الى حياته
الصاخبة التي جرت أحداثها على أرض وطنه ، وأن يجتر أفكاره
واحساساته وكأنما كان ينظر الى نفسه من بعيد ، وخرج من كل ذلك
بأعجب ترجمة ذاتية . وطبع الكتاب لأول مرة بعنوان « كتاب حياتي »
وقد كان يقصد من الكتاب أن يكون وصيته الأخيرة ، فثمة فكرة أخذت
تحتل ذهنه منذ أن غاب عن ناظره شاطئ الدانمرك والسفينة تمخر
به عباب المحيط ، وهذه الفكرة هي أنه سوف يموت خارج البلاد .
وحتى يتسنى للخلف الفرصة الحقيقية لفهم حياته وأعماله كتب
أندرسن ذلك الكتاب . واعتقد الناشر أن الكتاب مقصود به (لويز
كولين) والواقع أن أندرسن كان يعنى به أن يكون ذخرا للأجيال المقبلة .
لقد كان الكتاب اعترافا . « اذا مات وانا خارج البلاد فذكر ادوارد أن
ينشر ذكرياتي . . ان ما بيدك هي أفكارى » الأخيرة .



رحلاته وقصصه الأولى :

بدأ أندرسن رحلته الأولى في أبريل سنة ١٨٣٣ بزيارة باريس
ومنها سافر الى سويسرا ، وعن طريق ميلانو وجنوا ثم فلورنسا وصل
روما في أكتوبر من العام نفسه . وبقي في إيطاليا ستة أشهر كان يتنقل
فيها بين بلدانها المختلفة .

وفي أبريل سنة ١٨٣٤ قفل عائدا الى أرض الوطن فوصل كوبنهاجن
في أغسطس بعد أن مر بفينا وبراغ ودرسدن وبرلين ثم هامبورج .

وكان الأصدقاء في الدانمرك على علم بكل أخباره من الخطابات
التي كان لا يكف عن ارسالها لهم ، وكانت الخطابات تختلف باختلاف
الاهتمامات التي تشغل أذهان المرسل اليهم . فهو يقول « لجوتليب

كولين « - وهو الأخ الأكبر لصديقه ادوارد - في إحدى خطباته ، عن متحف اللوفر : « انه في الواقع أروع مما يخطر بذهن بشر ! انك تجد كل المعروضات في قاعة واحدة ، ولكن أى قاعة هذه انها تدير الرءوس ! ويكفى ان أخبرك بأن طولها لا يقل عن الطريق الرئيسى نحو روتشيلد ! » اما الى خطيبة « جوتليب » فهو يهمس قائلا : « النساء هنا لسن جميلات الا على ضوء الشموع ، انهن خلقن لصالة الرقص » .

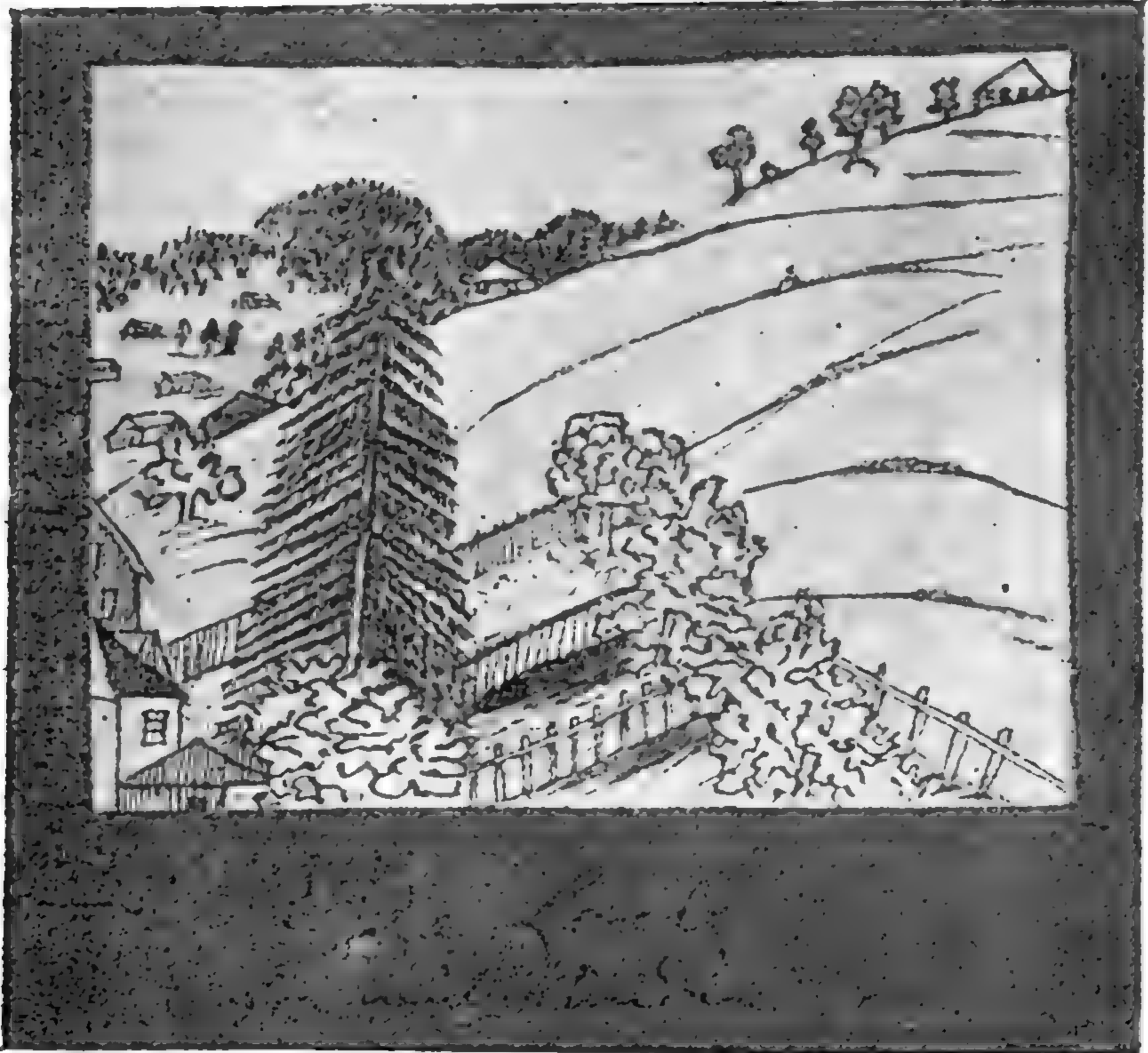
وكان المسرح هو المغناطيس الذى يجذبه فى أى مكان يضع فيه قدمه ، فأخذ يجوب كل المسارح التى يصادفها ، وفى فرنسا تعرف على كتاب المسرح الفرنسيين وبهرته الحياة الزاهية التى تفرق شوارع باريس .. « بجوار كل حائوت حائوت ، ومراة بعد كل مراة ، حتى ليخيل اليك انه لو تحطمت واحدة انهارت جميع المرايا فى اللحظة نفسها » .

وبدت له سويسرا أروع وأجمل من باريس . فلم يكن بالدانمرك جبال شامخة ، وقد بدت لها نر جبال الألب حين تفتحت عنها غلاىل الضباب ، كأنها أشكال ضخمة تسبح عالية فى الهواء . وقد ظن ، والمركبة تصعد به الى أعلى ، أن غلالة كثيفة من الدخان تقبل عليه وتحيط به ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن هذه الغلالة ليست الا قطعاً من السحاب ، وقد كانت المركبة تنطلق به فوق مستوى السحب ، وأخيراً « رأينا بين فرجات الجبال فى المنحدر البعيد ، منطقة خضراء رائعة .. أرضاً كالتى نراها فى الأحلام ، انها جنيف .. وان بحيراتها الجميلة لتبدو فى صفاء السماء وكأنما ماؤها الأزرق ملون «بفرشاة» ، وارتفعت الجبال نحو الافق كأنها أمواج من البلور القرمزى المتوج بالزبد الأبيض » .

وغمره جمال الريف الايطالى وتسلى كالأصابع الرقيقة الى قلبه تربت عليه فى حنان ، والى خياله تشحذه وتقويه ، وقد كتب لاحد أصدقائه فى أودنز يصف نه ريف ايطاليا بقوله : « ليس فى مقدورك أن تتصور تمازج الألوان والأشكال المتغيرة دواما على مسرح جنوبى ايطاليا ، فعند المساء يصطبغ البحر بلون وردى ، وتبدو الجزر وسطه مثل سحب قرمزية طافية ، أما الجبال فتكتسى بلون بنفسجى رقيق ، والى جانب كل ذلك ينهمر الحمم من فوق قمة (فيزوفىوس) كأنهار من دماء تضى فى نور القمر » .

وفى روما التقى بالمشال الدانمركى « تورفالدسن » وعقد معه صداقة وثيقة ودخل عن طريقه عالماً جديداً كان يستهويه منذ صفه الا وهو عالم التصوير ، فعند كان يحلم بالمناظر المصورة التى أوحى بها اليه الصور الملونة البدائية على باب غرفة والديه فى أودنز لم ير لوحات فنية وتمائيل رائعة من أعمال الفنانين العالميين . والآن انتشت روحه وهو يرى انتاج ميخائيل انجاو وبوتيشلى ودافيد . « لقد ذابت الثلوج من أمام عينى وانفتحت أبواب عالم جديد من الفن » .

وتحركات يده بسرعة الفنان الحساس ذي الانطباع السريع واخذ يصور بريشته كل نبضة حية من نبضات الطبيعة . وقد جمعت رسومه التي يعود اغلبها الى الفترة التي كان فيها في روما ، وهي الآن محفوظة بمتحفه في اودنز . وقد كتب الى صديقه ادوارد يقول : « لقد رايت اليوم حمامات شيشرون فرسمتها على الفور ، اننى اصبحت الآن اعيد الرسم



من النافلة - في (لولوكل) - رسم اندرسن هذا المنظر الطبيعي

الى حد كبير ويغبطنى كل فناني روما على دقة ملاحظتى ، ولقد رسمت حتى الآن مائة منظر هي بالنسبة لى ذخيرة رائعة . آه لو كنت قد تعلمت الرسم من اول الامر ! .

على ان رحلته الى ايطاليا لم تكن لهوا لاطائل وراءه . فكتابه «قصائده» ظهر في سنة ١٨٣٣ في اثناء وجوده بالخارج . وبعد ظهور هذا الكتاب اخذ اندرسن يتابع في لهفة وقلق آراء النقاد والادباء فيه . ولقد كتب احد النقاد يقول : « ان من الظواهر النادرة في ادبنا ان تصدر مجموعة من الاشعار تملأ ٣٥٩ صحيفة لاتجد ٢٠ منها تستحق التأمل ! »

وفي اثناء وجود اندرسن في « لولوكل » كان يعمل في جد ونشاط لكتابة دراما شعرية اسمها (آجنت والجنى) وكان يريد ان يعبر بها « عن الاشتياق الغريب الى شيء ما يختلف عما في ايدينا » . واخذ

يعرب في خطاباتاته التي كان يبعث بها الى الدانمرك عن آماله التي عقدها على هذا العمل . وكم كانت الصدمة مدمرة حينما أرسل اليه ادوارد في ديسمبر سنة ١٨٣٢ يقول له . ان المقطوعة لم تعجب أحدا وان جميع الناشرين يرفضونها . ولكن ادوارد استطاع أن ينشرها بعد أن أخذ يجمع لها الاشتراكات من الجميع ، الذين كانوا يدفعون وهم يقولون : « هل عاد الى الكتابة مرة أخرى ؟ لقد سئمناه منذ زمن بعيد ! » . وكتب مستر كولن لهانز يقول له « انك بمثل هذا الانتاج تخاطر بسمعة أعمالك كلها لدرجة انك لن تجد مكتبة واحدة تتقبل كتبك ولو على سبيل الهدية ! » .

ولم يطب له المقام في ايطاليا بسبب العاصفة التي استقبل بها النقاد والكتاب كلا من كتابيه الآخرين . ثم جاءت الانباء تفيد أن أمه قد ماتت في المستشفى ، فزداد احساسه بالوحدة والبؤس واليأس .

وعلى ضوء هذه الاحاسيس يمكن الحكم على الايام التي قضاها اندرسن في ايطاليا ، فلقد كانت السنوات بين ١٨٣٠ و ١٨٣٣ سنوات حرجة بالنسبة له . . انه لم يلق حتى الآن سوى النقد القاسي والعداء الشديد والنصائح التي كان يضيق بها ذرعا . لقد كان يشعر من فرط الأسى أنه يوشك أن يلقى قلمه في مياه نهر التيبر ثم يلقى نفسه وراءه . .

ووسط هذه الدوامة القاسية وعلى مشارف المستقبل المجهول التقت انطباعات الشاعر بلامح الفن العريق الخالد في ايطاليا لتتولد منهما شرارة تأخذ البصر ، والتقط اندرسن هذه الشرارة واشعل بها ما تبقى لديه من عزيمة وأمل وإيمان ، ولم يغادر ايطاليا الا وهو يحمل بذابة عمل كبير انتهى منه بعد عودته الى الوطن .

كان هذا العمل هو روايته « الشاعر المطبوع » وهي ترجمة مقنعة لحياته ، فالشخصية الرئيسية - والتي قدمها المؤلف في ثوب ايطالي - لم تكن سوى نسخة أخرى من المؤلف نفسه ، وكذلك فإن الشخصيات الثانوية فيها ملامح نعرفها كثيرا . . فهناك الام المسكينة والجذ المجنون والناظر ميسلنج والمدرسون في كوبنهاجن . . ان اندرسن يقول عن هذه الرواية « كل الشخصيات منتزعة من الحياة كلها ، ولا توجد شخصية واحدة من وحي الخيال ، اننى عرفتهم وأعرفهم جميعا . . » .

وليس من شك في أن هذه الرواية كانت نقطة تحول في حياته ، فبدونها ما كان ليستطيع أن يخرج عن كونه ذلك الفلام الجاهل المتعثر ليصبح الكاتب العالمي هانز كريستيان اندرسن ، فقد صدرت الرواية ولقيت اجماعا تاما على جمالها ، وأعيد طبعها عدة مرات وترجمت الى السويدية ثم الالمانية والانجليزية . وتوالت بعد ذلك أعماله الناجحة وما ان حلت سنة ١٨٤٠ حتى تأكدت شهرته واسترعت انظار أوروبا بأكملها وأصبح محل تقدير جميع الاوساط الأدبية بها واهتمامها .

وبدا اندرسن في هذه الفترة يحس بنظرة الطمأنينة والاستقرار في أول مرة في حياته .. قام يعد يطارده شبح القلق والجوع والتشريد .. انه يسجل هنا احساسه في صراحة وصدق جديرين بالاعجاب ! ففي خطاب له الى « هنريت هانك » حفيدة المطبعي (افرسن) كتب يقول : « لم يمر في حياتي شتاء هادئ سعيد كهذا الشتاء .. فان روايتي (الشاعر المطبوع) قد رفعتني في اعين الخبراء والعظماء .. وحتى عامة الشعب أصبحوا يحترموني ولم أعد أشعر بالقلق على طعام يومي .. حمدا لله فقد استطعت أخيرا أن أستمتع بالحياة تماما .. » فالناشرون يرسلون لى الصحف والمطبوعات . واني لأجلس مرتديا ثوبي المنزلي انزاهي (وشبشيبي) الملون على الأريكة المريحة ، وبجانبى الموقد ينز ، وابريق الشاي يطن ، ورائحة البخور تشيع في جوف الغرفة الاحساس بالرضا . وعندئذ أفكر في ذلك الصبي الصغير الذي كان ينتعل الحذاء الخشبي في أودنز ، فتمتلئ نفسي بالرضا والشكر لله الرحيم .

ولم يكن اندرسن مع ذلك قد ضمن الايراد الثابت الكافي لتشجيعه على الزواج مع الاحتفاظ بمستوى اجتماعي لائق . وكان كلما فكر في الاقدام على الزواج قال لنفسه في مرارة .. « كنت من قبل مشغول الفكر بالمجد ، أما الآن فقد أصبحت مشغولا بشجرة الخبز وجاءته شجرة الخبز على صورة معاش سنوي قررته له الحكومة ، وبدأ يحس بالاستقرار السكامل أدبيا وماديا لانه لم يعد يكتب اضطرارا لكسب القوت .. » وأصبح لى في حديقتي شجرة خبز .. ولم أعد بحاجة الى التفريد من أجل الفئات .



عودة الى المسرح :

الفنان هو الفنان دائما .. نوع من البشر لا يكاد يلوح له الاستقرار حتى يعاود البحث عن القلق ، ولا يكاد يحقق به القلق حتى تسود الدنيا في عينيه وينحى باللائمة على الايام .

فقد ظل اندرسن كما هو ، اندرسن الشاعر الذي لا ينفذ الى اعماقه كل ماحوله من مظاهر أو بريق . لم تعد « شجرة الخبز » الصغيرة هي كل هدفه المنشود ، وأخذ يشعر بالقلق والاكتئاب مرة أخرى .

ولقد عاوده هذا القلق في صورة الحنين الى المسرح الذي غادر من أجله مسقط رأسه وهو بعد طفل صغير . ولم يكن قد زائلة ذلك الحنين الى المسرح طوال تلك السنوات برغم الفشل الذي منى به في التمثيل والفناء . وكان اندرسن قد كتب اوبرا أسماها « عروس لامرور » ، وعرضت هذه الأوبرا على المسرح الملكي سنة ١٨٣٢ فصادفت بعض النجاح ، ثم كتب بعد ذلك عددا من الاعمال المسرحية الضعيفة التي لم تكسبه شيئا جديدا .



« هانز كريستيان اندرسن في شبابه »

ولكن بعد ان اصبح مرموقا ككاتب قصة اتجه الى القيام بعمل مسرحي كبير ، فكتب مسرحية شعرية اسمها « اخلاسي » وقدمها الى المسرح الملكي عام ١٨٣٩ . وكان موضوع المسرحية يدور حول رجل ملون استطاع بعد كفاح عنيف ومغامرات قاسية ان يتزوج الكونتيسة البيضاء التي يحبها . وبرغم ان « مولبك » الرقيب بالمسرح قرر ان المسرحية تافهة وتنقصها الفكرة فان مكانة اندرسن الادبية في ذلك الوقت استطاعت ان تدفع بالرواية على خشبة المسرح ، ولكن بشاء الحظ العاثر ان يموت الملك في ليلة الافتتاح مما ادى الى تأجيل العرض ، غير ان هذا النحس لم يدم طويلا ، فقد عرضت المسرحية بعد انتهاء فترة الحداد واذا بها تلقى استحسانا كبيرا ، مما دفع اندرسن الى كتابة مسرحية جديدة اسمها « عذراء المغرب » .

ولكن (موليك) لم يكن قد غفر لاندرسن موقف التحدي السافر الذى اتخذه ضده فى مسرحية الخلاسى « فتضامن مع « هايبرج » وهو اكبر ناقد ادبى فى ذلك الوقت للوقوف حجر عثرة أمام المسرحية الجديدة . وزاد الامر تعقيدا أن مدام هايبرج - وكانت الممثلة الاولى على المسرح الملكى - رفضت القيام بدور البطلة فى مسرحية « عذارى المغرب » . فحقق اندرسن عليهم جميعا ، ودفع بالمسرحية الى المطبعة بعد أن كتب لها مقدمة لاذعة ألهم فيها ظهور النقاد وذكرهم بالتوفيق المنقطع النظير الذى لقيته أعماله فى السويد والمانيا ! « ما زال الناس يضعون نصب أعينهم المحاولات الاولى التى قمت بها فى الكتابة للمسرح الى الحد الذى يثسروا معه من أن اكتب شيئا جديرا بالثناء فى هذا المضمار ، ومع ذلك فلقد اعتقدت أنه فى مقدورى أن ابذل محاولة جديدة ، وليس ثمة من يجهل هنا المشاق التى واجهتها لكى تظهر هذه المحاولة على خشبة المسرح . وانى لأعتبر قبولها من قبيل الرحمة برغم أنها لقيت من الترحيب والاستحسان ما لم يدر لى بخلد ، بل لعل أستطيع أن أقول انها أنعشت الموقف المالى للمسرح . »

أما عن هذه المسرحية « فتاة المغرب » فانى لن أعرف المصير الذى ستلقاه هنا اذ انى سأكون قد غادرت الديار قبل أن تتخذ طريقها الى خشبة المسرح . اننى سوف أرحل فى هذا الوقت بالذات لكى أنسى بعض الأشياء المريرة ، ثم لكى أستعيد قواى من جديد حتى أستطيع القيام بعمل افضل . »

وشد اندرسن الرحال نحو الشرق قبل أن يشهد المسرحية على خشبة المسرح الملكى فى ديسمبر سنة ١٨٤٠ ، ولقد قوبلت المسرحية ببرود ولم تعرض الا لمدة ثلاث ليال .

على أن هذا الدرس لم يكن كافيا لابعاد اندرسن عن الكتابة للمسرح ، فقد قدم فى عامى ١٨٤١ ، ١٨٤٢ بعض المسرحيات لعل أفضلها تلك الهزلية التى أسماها « غرفة النوم الجديدة » وكان قد قدمها باسم مستعار لأول مرة سنة ١٨٤٥ قائلا : « انهم سيقبلونها اذا عرفوا اننى لست كاتبها » وكأنما شاء القدر أن يثبت صحة رأيه فاذا هى تقبل فوراً ، وتنجح نجاحا يجعلها تبقى فى برنامج المسرح لتمثل بين حين وآخر لفترة تقرب من مائة عام .

وفى سنة ١٨٤٦ عرضت له أوبرا « كريستين الصغيرة » التى وضع موسيقاها هارتمان وأصبحت على كل لسان . وتحقق اندرسن فى نهاية الامر أن كتابة التراجيديات لا تتلاءم معه فأخذ يكتب منذ سنة ١٨٥٠ عددا من الهزليات بصفة منتظمة لبعض المسارح الشعبية .

القصص الأسطورية :

هناك عاملان أساسيان لاتجاء أندرسن الى كتابة القصص
الأسطورية للناشئة

العامل الاول نفسى ، وهو يتعلق بما ناله من عقوق ونكران من
الجيل الذى عاش فيه . انه كان ينشد الشهرة والمجد ، وها هى ذى
السنون تنهب من عمره ولا يكاد يظفر بما كان ينشده ، فالنقاد يضعون
امامه العراقيل تلو العراقيل ويمثلون طريقه بالشوك ويسلطون عليه
اقلامهم الحادة التى تنهش روحه وقلبه . كان جيله فى نظره مفعما
بالنفاق ، فمن يصفق له اليوم استحسانا يقلب له فى غد ظهر المجن
وينضم الى جيش الحاقدين . وهو ايضا جيل قاصر محدود التفكير لم
يقدر على فهمه وتقديره حق قدره ، ومن ثم كان لا بد له من الاتجاه الى
جيل آخر - جيل طيب لا يعرف الحق ، جيل يمد فى عمر شهرته
سنوات طويلة لا تعوض ما ضاع من عمره فحسب بل تمتد بعد وفاته
اجيالا اخرى .. وهذا هو ما يفسر تلك العبارة التى وردت فى خطاب
له الى (هنرييت هانك) : « لقد شرعت فى كتابة بعض القصص الخيالية
للأطفال ، اننى أريد أن أكسب الجيل القادم » .

اما العامل الآخر فهو عامل مادي ، اذ بعد أن فرغ أندرسن من
روايته « الشاعر المطبوع » التى كان يعلق عليها اكبر الآمال ، بعث بها
الى ادوارد كولين الذى حملها الى الناشرين وسأولهم عليها نيابة عن
صديقه ، فأبى جميعهم أن يدفعوا أكثر من ٢٠ جنيها ، وعلى أقساط
ولم يسم هانز الا أن يقبل مرغما فقد كان عليه ايجار شهر للمسكن ،
وبرغم أنه كان يتناول وجبة عشاء كل يوم عند أصدقائه بالتناوب فان
ملابسه وحذاءه كانت فى حالة يرثى لها .

وبسبب فقره الشديد ، وحاجته الملحة الى المال ، اضطر الى
تأليف كتيب يحتوى على بعض القصص الأسطورية للأطفال ، منها
(القداحة) ، (كلاوز الصغيرة والكبيرة) .

على أنه بالرغم من أهمية هذين العاملين فان التحول الخطير فى
حياة أندرسن الأدبية لم يكن محض مصادفة ، بل كانت له جذور متأصلة
فى كيانه منذ أن كان طفلا صغيرا .

فلقد كشف هانز منذ الصغر عن ميل الى كل ما يمت بالخوارق
الطبيعية والأساطير بصلة ، كما أنه كان دائم الهروب من واقعہ والتخليق
فى الأجواء البعيدة حتى لقد كانت أمه تقول : ان ابنها أغرب الأطفال
وأعجبهم .

ومن ناحية أخرى كان أندرسن ذا احساس غير عادى وفهم عميق
لنفسية الأطفال ، كما أنه كان قادرا على التعبير عن نفسه بما يرضى
أمزجتهم على مختلف أعمارهم . وها هو ذا « ادوارد كولين » يعطينا
صورة حية عن سلوك أندرسن الفريزى نحو الأطفال « كان كلما وجد
فى أحد المحافل التى نرتادها مجموعة من الأطفال اقتحم عالمهم وجذبهم
اليه فى ثوان معدودة بما يقص عليهم من قصص كان أغلبها وحي الساعة

موبعضها مقتبس من الاساطير التي نعرفها . ولكن سواء كان يؤلف تلك الأقاصيص أو يرويها من بعض ماقراً ، فان طريقة عرضه لها كانت طريقة خاصة به ، ومثيرة لدرجة تجعل كل طفل مشغولاً عن نفسه وتشد أذنه وكيانه الى شفتي اندرسن .

ولقد كان اندرسن نفسه يحس بالمتعة عندما يجد الدهول البادى علي وجوه الاطفال ، فينفات لسانه من عقاله وينطلق في الحديث دون توقف على حين تعمل يداه وملامح وجهه في حركات مستمرة مما يكسب كلامه كل سحر وتأثير . لقد كان يبت الحياة في العبارات المجردة ويضفي عليها من خياله المتوقد ما يحيلها الى مشهد نابض بالحركة : فهو مثلاً لا يقول هذه العبارة : « صعد الاطفال الى المركبة وانطلقت بهم » بل انه « يترجمها » بطريقته الخاصة الى ما يلي : وتواثبوا جميعاً الى المركبة .. وداعاً بابا .. وداعاً ماما .. وفرقع السوط في الهواء .. وطارت المركبة في طريقها .

لقد كانت طريقته مفعمة بالحياة لانه استعمل عبارات سهلة تناسب في غير ما تعقيد او حذقة . ومن أجل هذا قيل - والقول حق - ان اندرسن ليس هو الذي أخذ من اللغة الأدبية في عصره ، بل ان الشعب الدانمركى هو الذي تأثر « باللغة الاندرسنية » .

وكان من ملامح ذلك العصر الاهتمام الزائد بالاساطير الشعبية ، فلم يكن أى بيت في الدانمرك يخلو من كتب الاساطير لآخوان (جريم) والكاتب الألماني « هوفمان » . وكان لهذه الاساطير فعل السحر على هانز كريستيان اندرسن ، على أنه لم يكن يكتفى برواية الاساطير الشعبية ، بل كان يهضمها ثم يخلق منها شيئاً جديداً نابعاً من عالمه الخاص . وفي هذا يقول (ادوارد ليهمان) المؤرخ المشهور : « ان كل الاساطير التي عالجها رومانتيكيو ألمانيا ليست سوى صور أدبية ، أما اندرسن فقد أخرج لنا الاساطير - سواء تلك التي رواها أو وضعها - عن زاوية أصيلة وتجربة ذاتية حقيقية . انه آخر كتاب الاساطير في العالم ، ولانه آخرهم فهو أولهم وأعظمهم » .

وبمجرد ان اكتشف اندرسن هذا الاتجاه الطبيعي في نفسه ورأى ملاءمته لمواهبه شرع في نشر الاساطير التي ألفها بنفسه . وكان يجسد الالهام أينما حل « كان يخیل الى ان كل ورقة وكل زهرة تقع عليها عيناي تهيب بي قائلة : أنظر الى لحظة واحدة ولسوف تعرف قصتي موكنت كلما أفعل أجد لدى قصة جديدة » .

ولقد كانت طفولته نبعاً لا ينضب ، وكذا تجاربه وأسفاره ، وهو يتحدث عن الافكار التي كان يفوص وراءها في أغوار عمره فيقول : (انها تكمن هناك كالبدور ، وكان يكفي انطلاقها براعم زاهية ، نفحة من هواء أو شعاع من شمس أو قطرة ندى) .

وتختلف أساطير هانز كريستيان اندرسن عن الاساطير الشعبية التي كانت معروفة قبله بما تحويه من وفرة في وصف الطبيعة ، فقد كان اندرسن ذا احساس فريد بجمال الطبيعة ، وكانت الزهور هي

أقرب مظاهر الطبيعة الى قلبه . وما زالت في متحف اندرسن مجموعة من الزهور كان قد جمعها في أسفاره المختلفة واحتفظ بها الى آخر أيامه .

وثمة شيء آخر تميزت به قصصه الاسطورية وهو الحنو الى كل من أساءت اليه الحياة ، ولقد كان ذلك نعمة جديدة في الأدب الدانمركي على ان قصصه لم تكن خالية من ومضات المرح والسخرية . لقد كانت كل قصة تحوى نقطة من دمائه ، ولعله من أجل هذا السبب بقيت قصصه حية خالدة على مر الأيام .

اقامته في بيوت الاعيان :

عرف اندرسن طريقه اذن حوالى سنة ١٨٤٨ . أدرك ان ما يلائمه ليس المسرحيات او القصص الطويلة التي جعلته في مؤخرة الصف ، بل ان الاساطير هي التي طيرت شهرته في الداخل والخارج . وفي الوقت الذي أخذ مستقبله يستدير نحو الاتجاه المستقيم اكتشف اندرسن القلب المعيشى الذي يتناسب مع حياته الوحيدة القلقة ، فكان يقضى شهور الشتاء في كوبنهاجن حيث المسارح والاصدقاء ، ولكنه عادة كان يغادر المدينة اما الى الخارج واما الهجوع الى بيوت كبار الاعيان بالريف الدانمركي ليقضى في كل منها بضعة أيام .



أحد بيوت الاعيان في جلوروب

ولقد كثر عدد اصدقائه من هؤلاء الاعيان عاما بعد عام ، ولعل أكثر البيوت ترددا في كتاباته هي التي زارها في (ليكيشولم) و (جلوروب) و (هولشلبورج) حيث كان يقضى بضعة أيام وهو في طريقه الى الخارج أو في طريق عودته أو في أعياد الميلاد .

وكان اكثر ما يجذبه الى تلك البيوت هو ميله الى البقاع الهادئة ذات المناظر الطبيعية الخلابة « في هذا العالم الهادئ ، عالم البحيرات والغابات والمروج الخضر التي تمرح فيها الطيور بمختلف أنواعها ، لم أسمع لغو الحديث عن الساسة والسياسة ، او تفاهة الاحاديث عن الفلسفة والسفسطة . وانما اسمع فقط همسات الطبيعة الخالدة التي تنفذ الى أعماق قلبي » .

كان من الطبيعي اذن أن تؤتى الحياة في تلك القصور اكملها ، وأن يخرج لنا اندرسن مجموعة من الاعمال الهامة في تلك الفترات التي قضاهها وسط الهدوء والبساطة والجمال . ونذكر من هذه الأعمال (العائلة السعيدة) و (العنديل) و (البستاني والسيد) وغيرها .

الى الخارج :

لا يعرف كاتب في ذلك العصر قام بهذا العدد من الرحلات الطويلة مثل ما فعل اندرسن . ولم يكن السفر في نظره نوعا من التسلية أو ضربا من المتعة ، بل كان يراه ضرورة وعنصرا هاما للبحث عن الانطباعات التي تذكي خياله وتحطم سياج الالم واليأس الذي كان يغلف قلبه في اغلب الاحايين . وهو يقول في هذا المعنى : « في السفر حياة .. ان غذاء روحى الامثل هو الطبيعة بكل ما فيها من روعة وشموخ ، والسفر جزء من عملي كشاعر » .

ثم يكبد اندرسن يمكث بضعة شهور في كوبنهاجن حتى نزعته نفسه الى الرحيل مرة أخرى . فقام بتدبير مركزه المالى ووضع في اعتباره كل الظروف التي تحيط به ازاء رحلته الجديدة بعد أن عانى كثيرا من الضيق المالى الذي اكتنفه في أثناء وجوده فى ألمانيا .. « لقد بدأت اتعلم كيف أسافر بطريقة اقتصادية ، فالعقل - وليس الشعر - هو المطلوب عند السفر » .

ولقد مارس اندرسن في رحلاته التي كانت بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٧٠ جميع وسائل الانتقال المعروفة في تلك الايام من الحماز الى البواخر والقطار . وكان يحس - لكثرة ملاقاه فى اسفاره من مشقة - بالبهجة كلما ظهرت وسيلة جديدة تختصر المسافات وتهىء للمسافر مركبا سهلا ، ويرحب بكل خطوة تقدم فى هذا المضمار .

على أن كل همه كان الرحيل الدائم بصرف النظر عن صنوف التعب التي كان يلقاها . فقام فى عام ١٨٤٧ بجولة طويلة بدأها بانجلترا فسويسرا فروما فاسبانيا فالبرتغال فباريس ، كما زار السويد والنرويج .

ولقد كان اول هدف له من هذه السفريات البحث عن مادة للكتابة .. « عندما أكون فى الخارج لا أعرف الراحة منذ الصباح حتى المساء ، اننى لا أملك الا أن أنظر وأنظر والا أن أفتح أفكارى على مصراعيها للبلاد والشعوب والجبال والبحار .. لقد كنت فى أول الامر احس بهيجان ينبثق فى داخلى ، وبعد فترة تهتز نفسى ثم تهدأ لتخرج منها البراعم حية نابضة » .

ان نظرة اندرسن الحادة وخياله اللامح جملا من كتاباته ادبا خالدا ، واكسبا اعماله الوصفية مكانة رفيعة بين اساجه . لقد كان لاندرسن عقلية الصحفي وخيال الفنان والاسلوب الرفيق الذي يقطر عذوبة وسهونة .

وكان الهدف (الثاني) لاندرسن من هذه الرحلات هو التزود بصداقات جديدة في كل مكان ، فلقد تميرت شخصيته منذ الطفولة بالرغبة في التعرف على الناس ، وازدادت هذه الرغبة على مر الايام وخاصة عندما استرعت اعماله انظار عدد غير قليل من الناس في الداخل والخارج .

ومما هو جدير بالذكر انه كان يبدو أكثر ميلا الى الفنانين الذين خرجوا - مثله - من بيوت فقيرة ، فنجده قد تعطف في روما سنة



المثال الدانمركي نورفالدينسن

١٨٢٣ الى النال الداتمركى « نورفالدسن » ، وطاب خاطره عندما علم ان ذلك الفنان الكبير ينسق طريقه الملى بالانشواك فى عزيمه لا يتطرق اليها الياس . واحس اندرسن ايضا ان هناك نساياها كبيرا بين حياته وحياة الموسيقار الترويجى « اول بل » . ولعل هذه التزعة بالذات هى التى جعلته يسعى الى التعرف بالكاتب الانجليزى الكبير (تشارلز ديكنز) فى أثناء زيارته لاجتاراً عام ١٨٤٧ ، ١٨٥٧ فلقد وجد اندرسن فى حياة ديكنز ملامح غير بعيدة عن ملامح حياته .



تشارلز ديكنز ..

احس اندرسن ان شقاء طفولتهما يربط روحيهما برباط وثيق

على ان حياة اندرسن لم تسائر بقتان ما من فنانى عصره مثلما عاشرت بالمغنية السويدية « جينى لند » .

لقد جاءت الفنانة الشابة الى كوبنهاجن سنة ١٨٤٠ وكانت تتمتع بشهرة كبيرة ، وفى أثناء زيارتها الثانية لكوبنهاجن ١٨٤٣ تمت بينهما وبين اندرسن معرفة وثيقة أدت به الى ان وقع فى حبها .. « النى اعلم انها ليست سعيدة وانها مرت بايام عصيبة » .

وفي عام ١٨٤٥ قابلها اندرسن في برلين حيث حل عليهما عيد رأس السنة الميلادية وعرف في أثناء احتفالهما بالعيد أن حبهما ليس متبادلا وانها تنظر له كاخ لا كحبيب . ولقد ألهمته هذه التجربة العميقة عددا من القصص الخالدة ، مثل (الكروان) و (الملك) و « تحت شجرة الصفصاف » . ولعل أروع هذه الأعمال جميعا هي قصة (الكروان) التي تتحدث عن كروان كانت له مكانة أثيرة عند أحد الملوك ، فجاء الطائر يوما الى الملك يطلب منه أن يمنحه حبيبته بعيدا عن قصره حيث يستطيع الغناء للجميع على السواء . (انظر الفصل الثالث)

ولقد شاهد اندرسن « جيني لند » بعد ذلك عدة مرات ، ولكنها بعد أن تزوجت عرف أن حياته قد دمغت بالوحدة والحرمان الى الأبد . ولقد سجل اندرسن هذه التجربة في كتابه (اسطورة حياتي) فقال :



جيني لند

« مامن فنان أفهمنى قدسية الفن مثل (جينى لند) ، فلقد تعلمت منها كيف أنه لا بد لنا أن ننسى أنفسنا في سبيل ما هو أهم وأخطر . وما من كتاب أو شخص كان له ذلك الأثر النبيل العظيم على نفسى كشاعر مثل ذلك الأثر الذى كان لجينى لند » .

واتسعت دائرة معارفه بازدياد شهرته ككاتب ، فأصبحت له صداقات وثيقة بعدد كبير جدا من أساطين الادب في جميع أنحاء أوروبا مثل (ليست ، و (واجنر) و (هاين) و (فيكتور هوجو) و (بلزاك) و (دو ماس الأب) و « لامرتين » و « الفرد دى فينى » وغيرهم ممن تربعوا على عرش الفن والادب فى منتصف القرن التاسع عشر .

وقد أدت ألمانيا دورا خاصا فى حياته ، فقد كانت العلاقات على ما يرام بين الدانمرك وألمانيا فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وكان الادب الالماني وبخاصة أعمال (جوته) و (شيلر) من القراءات المفضلة لدى صفوة المثقفين فى الدانمرك . ولم ينس أندرسن الاستقبال الطيب الذى لقيته أعماله الأولى فى ألمانيا ، فكان يحس نحوها بالعرفان وخاصة عندما يقارن ذلك التشجيع بما جابهه من نكران ومهانة فى بلده . من هنا كانت لألمانيا مكانة اثيرة فى قلبه ، وكانت الايام التى يقضيها فى (ويمار) من أسعد أيام حياته . وقد تعرف هناك بالملح الشخصيات وأكابر القوم ونال من الجميع كل تكريم . فلما قامت الحرب بين الدانمرك وبروسيا صارت نفس أندرسن نهبا لآلام عنيفة ، فلم يكن فى مقدوره أن يكره ألمانيا ، كما أنه كان يشعر بقلبه يتمزق لأجل وطنه . وقد كان حياته هذا ماثرا صعبا كثيرة بالنسبة لأندرسن . ولكنه قطع كل الشكوك التى بدأت تلتف حوله بأن كتب أغنيته الوطنية التى أصبحت ترددها الاجيال كلها بعده ، والتى استهلها بقوله : « فى الدانمرك ، أرض البساطة كان مولدى » وهى منشورة فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولقد كتب الى ادوارد كولين يرد على ما اثر حوله فى هذا الصدد : « اننى اكثر الشعراء دانمركية ، فلقد ولدت فوق هذه التربة وعليها اموت - ولسوف يعترف الجميع ، داخل هذه البلاد وخارجها ، اننى كنت أخاص الشعراء لوطنى » .

تقدير :

« أواه يا ادوارد ! ان روحى لتتوق الى أن يعترف بى اعترافا حقيقيا كما يتوق العطشان الى جرعة ماء ! » .

هكذا كتب أندرسن فى سنة ١٨٣٣ الى ادوارد كولين . وفى سنة ١٨٣٦ كتب يقول : « آمل أن يرتفع من أجلى صوت واحد فى ألمانيا ولسوف تجد الجميع هنا يعترفون بمواهبى ويضعوننى فى المكان الصحيح » . وأخذ يندب على هذا التوتر بعد ذلك فح كل خطباته . ولقد استقر بباله أنه لا بد أن سيصبح مشهورا ، وأن الناس خارج وطنه قد ادركوا بوارق المجد الكامنة فى أعماله وتفاضوا عما يمكن أن يكون بهذه

الأعمال من هبات أو مواطن ضعف ، وأبرزوا ما فيها من جمال . أما الناس في الدانمرك فقد جعلوا كل همهم إبراز ضعفه وتثبيط همته .

والواقع أنه لقي تكريما مبكرا من الناس خارج وطنه . وإذا كان لنا أن نشير الى فترة معينة وقف فيها اندرسن - في حياته - فوق هامة الشهرة والمجد فلا بد أن تكون هذه الفترة هي السنوات ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٥٠ .

فقد كان ينعم في تلك السنوات بالاستقرار الذهني بعد أن اكتشف الشكل الأدبي الأكثر ملاءمة له ، وكان يتمتع بحيوية وقدرة فائقة على الكتابة ، فضلا عن علاقات المودة والحب التي كانت تربطه بأساطين الفن والأدب في كل مكان بأوروبا .

ولم تكن رحلاته في (الأربعينات والخمسينات) سوى مواكب متصلة من الحفاوة والتكريم . ولا أظن أن كاتباً عالمياً نال من التشريف أبان حياته مثلما نال اندرسن ، فقد حدث في أثناء زيارته للبرتغال أن رفعت السفن الدانمركية الراسية في ميناء برشلونة أعلامها تكريماً له . وفي لندن قضى ثلاثة أسابيع كانت كلها أعياداً : « لقد كنت أدعى كل عصر وكل مساء ، وبعد ذلك أذهب الى الحفلات التي تقام الى ساعة متأخرة من الليل ان جميع الأماكن التي ارتدتها كانت تفص بالناس ، حتى أنك لا تجد مكاناً لقدم في انقاعات أو على السلالم .. لقد كانت الدعوات التي وجهت الى فوق احتمالي » . وقد دعاه في لندن اللورد (بالمرستون) ، والتقى هناك أيضاً بدوق « كيمبردج » وياقة كبيرة من زهور المجتمع اللندني .

وفي وليمار سنة ١٨٤٤ دعتة الدوقة (أوجستبرج) لزيارتهم ، فلبى الدعوة وقضى أسبوعين كاملين ضيفاً على العائلة الدوقية ، « وهناك وسط هذا البهاء الدوقى خطرت لي فكرة قصة أسطورية تصف ما يعانيه أناس آخرون من فاقة وعوز . ولقد أسميتها (بائعة الكبريت الصغيرة) . »

وفي درسدن نزل ضيفاً على الملك « فريدريك أوجست الثاني » والملكة « ميري » . وفي سنة ١٨٤٦ زار الدوقة « صوفي » دوقة النمسا . وفي برلين سنة ١٨٤٥ دعي الى حفل عشاء في بوتسدام . وهناك قدم له الملك وسام النسر الأحمر من الدرجة الثالثة .

وفي أثناء زيارته الطويلة للسويد سنة ١٨٤٩ استضافه الملك « أوسكار الأول » ، كما زار الملك « ماكس » ملك بافاريا في سنة ١٨٥٢ . سنة ١٨٥٤ . وكان يطلب منه حينما حل أن يقرأ بصوت عال بعض قصصه الأسطورية ، وكان يقوم بذلك في رضا .



**اندرسن يقرأ اقصيصه الاسطورية في بيت الدوقة (أوجستبرج)
(الرسم بريشة هارتمان سنة ١٨٤٥)**

ولم يفت الشاعر أن يقص على الشخصيات الملكية طرفا من حياته المفعمة بالكفاح والأمل ، وقد علق الملك « ماكس » يوما على ما لاقاه اندرسن في حياته قائلا له : « لابد أنك تحس بالسعادة الفائقة عندما ترى نفسك قد تغلبت على كل شيء وحظيت بالمجد في النهاية . »

كما لم يفته أن يؤكد في خطابات له لآل كولنز الى أي مدى كان يعنيه الاعتراف بفته ، فكتب وهو في ضيافة الملك « ماكس » : « وهكذا عبر لي الملك عن ابتهاجه بما وصلت اليه وحققته بعد أن قطعت ذلك الطريق الشائك الطويل ، وأخبرني بأنه سعد كثيرا عند ما سمع أن أدبي معترف به في ألمانيا أيضا . »

وكتب في عام ١٨٤٦ يقول : « سمعت أنهم يبتهجون لأعمالي في إنجلترا .. وأن طبعة فاخرة على وشك الصدور في ألمانيا .. اننى لست ميئوسا منه اذن كما يظن معظم الناس في بلادى .. » وفي العام نفسه كتب يقول : « بالرغم من أن الترجمات التي تداولها أوروبا لأعمالي ليست جيدة - فأننى لا أملك إلا الشعور بالرضا . »

وكتب في لندن عام ١٨٤٧ معبرا عن قلقه على مستقبله : « لقد حصلت على كل ما يمكن أن يتصوره انسان من التقدير والتكريم .. لابد اننى أعيش الآن على القمة ، واننى متجه منذ اللحظة الى القاع .. »

فهل يمكن أن يكون هناك أكثر مما أسبغته على هذه المدينة العظيمة ؟ .
ولكن إلى جوار هذه الرغبة في التقدم والسمو ، وإلى جانب الانتصارات
انتى أحرزها ، والأمجاد التى لم ينلها كاتب آخر أبان حياته ، كانت
نفس أندرسن تنطوى على قدر غير قليل من الخنوع : « ما من شك فى
أننى نجحت فى أن أصبح أشهر دانمركى فى العالم ، ولكنى أحيانا
ما أقع تحت وطأة حال من الخضوع تنهمر فيها الدموع من عيني
كالسيل ، فكلما صعد بى الحظ خطوات إلى أعلى يزداد احساسى
بالتفاهة وعدم جدارتى بكل ما أسبغه الله على من نعم » .

وأحيانا ما تشتد كآبته وتبدو له كل هذه الدنيا ضربا من العبث
« اننى لا أحس بالسعادة على الإطلاق . أعتقد أنه من النكران أن أقول
ذلك ، ولكننى بدأت أدرك الضحالة المتناهية التى تنطوى عليها أية
شهرة أو مجد فى هذا العالم . »

ولعل العقدة الوحيدة التى جعلته يسيء الظن ببلده. ويبالغ فى
المقارنة بين الحفاوة به فى الخارج والنقد الذى لقيه فى الداخل - لعل
هذه العقدة هى المسرح - ولقد كشف ادوارد كولين عن هذه العقدة
عندما قال سنة ١٨٤٦ : « انه ما من شيء يقف بين أندرسون وبين
الدانمرك سوى المسرح الملكى ، . . . » وهكذا تعود أدراجك دائما إلى
طرق أبواب ذلك المسرح الملعون . ان هذا يؤلمنى منك أشد الألم . هل
اعترفت بك ألمانيا ككاتب مسرحى ، أو أنها تنظر اليك ككاتب قصص
أسطورية ؟ ألم يحب الناس فى الدانمرك تلك القصص ؟ اننى أعتقد
أنهم يحبونها بأخلاص وعمق أكثر مما يفعل الألمان . »

ختم القصة

كان اندرسن يعرف تماما أن مسرحياته لم تكن فعلا هي سبب ما يلقاه من تقدير وتكريم ، ومن ثم بدأ يقتنع برأى « ادوارد » والألم يعتصر قلبه ، وأيقن أنه لا مناص من أن يركز حياته الأدبية في تأليف الأقاصيص وعلى مر السنين بدأ مواطنوه تدريجيا يقدرونه كما ينبغي ويعترفون بنبوغه كمؤلف أروع أقاصيص للأطفال . ونشرت بعض قصائده في كل مجموعة من أشعار كبار الشعراء الدانمركيين .

ثم جدت ظروف عطفته نهائيا الى بلاذه وأرغمته على تركيز جهوده فيها . . فان هزيمة عام ١٨٦٤ التي أرغمت فيها الدانمرك على النزول عن مقاطعتي « شلسويج » و « هولشتاين » لالمانيا ، كانت سببا لمرارة كل دانمركي . وتم الاتفاق بين اندرسن وبلده بعد هذه التجربة ، وعوضه بلده كل ما لاقاه من مرارة وحرمان فخلع عليه كل شرف وفخار وزاد الملك كريستيان معاشه ومنح بعد ذلك لقب « البروفسور » ثم « المستشار » .

وشعر اندرسن أن حياته أصبحت تشبه القصص الاسطورية الى حد كبير . فأى بون شاسع بين طفولته في أودنز وهذه المكانة الرفيعة التي آلت اليها رحلة حياته في كوبنهاجن ، تلك الرحلة التي قضاها ضارباً في بقاع الأرض ؟

وفي شهر ديسمبر عام ١٨٦٧ دعى اندرسن الى مدينة « أودنز » ليشهد الاحتفال بتكريمه وليقضى فترة في ضيافة الاسقف « انجلشوفت » الذي كان صاحب فكرة الاحتفال . وفي اثناء الاحتفال تذكر اندرسن قصة علاء الدين الذي بنى قلعته الضخمة بمصاحبة السحري فتوجه - مثلما فعل علاء الدين - الى النافذة وقال : « لقد كنت أزرع هذا الطريق وأنا طفل صغير ولقد منحت أنا أيضا مصباحا سحريا من روح الله ، انه مصباح الشعر . وعندما شمل هذا المصباح بضوئه عدة بلدان ، وهلل الناس له وقالوا هذا النور آت إلينا من الدانمرك - في هذه اللحظة - دق قلبي بالبهجة » .

وكان اندرسن قد بلغ به الإرهاق أشده ، ويبدو أن حياته القاسية وفاقتة ، وسوء تغذيته في صباه ، وتوتر أعصابه طوال عمره قد هدمت جسمه ، وأصبح دائم الشكوى من الامراض .

ومنذ حوالي سنة ١٨٧٢ بدأت قوته تنهار وازداد توتر اعصابه
وعجلت وفاته اصابته سرطان في الكبد ، فلفظ النفاثه الاخيره في
السادس من اغسطس سنة ١٨٧٥ .



« ختام النصه »
اندرسن في عام ١٨٧٤

الفصل الثاني

القصة الأسطورية قبل أن درسنا وبعده

* مقدمة :

- ١ - نشأة الاساطير .
- ٢ - الأسطورة والفولكلور .
- ٣ - الخرافة في الاساطير .

* أولا : القصة الاسطورية قبل أن درسنا :

- ١ - تمهيد .
- ٢ - مرحلتان .
- ٣ - القصص الشعبي والادب .

* ثانيا : قصص أندرسنا الاسطورية :

- ١ - الفكرة .
- ٢ - المضمون .
- ٣ - القالب .

القصة الأسطورية قبل أن درسنا وبعده

مقدمة

١ - نشأة الاساطير

في اذهان بعض الناس ان الاساطير ليست سوى « حواديت » تروى حول « المدفأة » في ليالى الشتاء الباردة ، ولا هدف من ورائها الا التسلية والمتعة وقطع الوقت .

ويخطيء هؤلاء اذ يأخذون الاساطير على انها خرافة وحسب ، ليس فيها من الواقع او الاهداف شيء سوى ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الاطفال .

فما كانت الاساطير شيئاً من ذلك قط والا فما استطاعت ان تكون هي العمدة الخالدة التى قامت عليها اركان الادب العالمى ، وما أصبحت هي الجذور التى تفرعت منها هذه الالوان المتباينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الاسطورة الانسان منذ نشأته وما تزال ترافقه ، وفي كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم ، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة . وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدت فى صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والسلام .

وما من أمة ارتفع شأنها او هان الا ولها اساطيرها ، وهى فى كل ألوانها - سواء كانت الهية او بطولية او غرامية او خلقية او فكاهية - إنما تمثل جزءاً ضخماً من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلاً بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانباً حيواً فى تكوينهم وحيواتهم .

ولا شك ان كل هذه الاساطير قائمة على أساس من الحقيقة . غير ان الخيال الانسانى مع مر الايام البس الحقيقة من الاوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول ، وان تكن قريبة محبة الى النفوس .

ومع ذلك فأغلب الاساطير يدور حول انشاء حياة أفضل ، وهى محاولات نشأت مع نشوء الانسان ، يفسر بها أهم المشكلات التى واجهته فى بدء حياته على الارض ، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويجتاز

فيها الهوة بين العالم الذي يعيش فيه ، والكون الغامض الذي يحيط به ، ويحاول بها معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ، ولماذا يقع الشر ؟ وكيف ينتصر الخير ؟

وبالرغم من أن الانسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المحاولات ، فإنه في خضم غروره ، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول الى الكواكب ، ومغالبة الفضاء ، ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون . وهي - وان كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة - لا تختلف في شيء عما كان يملأ ذهن الانسان القديم ، بالقياس الى المراحل الحضارية التي كان يعيش فيها ويتدبرع بين أحضانها .

وتتضح حقيقة الاساطير عندما يتلمس المرء قصتها منذ بدأت ، وقصة منشاء الاساطير نفسه منذ خلق ..

فقد عاش الانسان اول امره حياة بدائية محوطة بمئات الاخطار والاسرار ، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع ادراكها ، ادراكا علميا على أن يتوهم لها تفسيراً ، ويتخيل أصولاً ووقائع يرتاح اليها وتزيل حيرة نفسه ..

وكان اول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التي تحيط به ، ايمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات . وبدأ الانسان يتأمل تلك القوى ، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول اليه فيجعله الها ، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرايين .. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد كلها آلهة طفق الانسان ينسج حولها القصص ويتناقلها خلفاً عن سلف ، جيلاً بعد جيل .

ولكن الانسان اخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى .. كيف جاءت هي الاخرى ؟ لا بد أن هناك شيئاً خالقاً ، شيئاً أقوى من كل شيء ، استطاع أن يصنع وحده كل تلك الاشياء ..

ومن هنا كانت أقدم الاساطير التي وضعها الانسان هي اساطير الخلق ، نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق ، وكيف أقام السماء والارض ، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها وأشكالها لتعمر الكون ..

تصور الانسان - اول ما تصور - الخالق الاول ، مصدراً رئيسياً للقوة والخلق ، يهيمن على كل شيء ، ويسيطر على أركان الكون الواسع الشاسع الاطراف . تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ، ينظمون الحياة على الأرض ويبصرون أعمال الناس ، فيشيون المحسن ، وينكلون بالمسيء .

عندما تصور الانسان مجتمع الآلهة وتخيله ، بدأ يربط بينه وبين مجتمعه ، حيث كان لا بد من اتصال الآلهة والبشر ، واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك فنشأت صور جديدة ترسم ذلك الاتصال ، ثم الاشتباك ، ثم الصراع الذي كان لا بد أن يكون ..

ذلك الصراع الذي يتمثل في طوفان شديد ينتهى بالقضاء على
البشر المفسدين الا واحدا تصطفيه الآلهة فينجو في فلك يصنعه ،
وعلى يديه تعود الحياة من جديد .

وبدت صورة الطوفان واضحة في مختلف الاساطير ، وتمثلت
صورة الانسان الذي اصطفته السماء ، فهو « شمس نيشتين » عند
البابليين ، و « تجتوج » عند السومريين ، و « كزيزوتروس » عند
الاشوريين ، و « دو كاليون » عند الاغريق .

ثم عاد الانسان يطل الى الاشياء الغامضة التي تحيط به ..
فتسوهم أن لكل شيء حوله الصفات التي له نفسها وافترض أن للجما
روحاً وللنبات روحاً وللآلهة روحاً وأنها تتصرف تماماً كالانسان : تحب
وتكره ، وترضى وتغضب ، وتفعل كل ما يفعله هو نفسه ..

وكان الانسان مستمرا في صراعه مع الطبيعة ، ولكن وسائل
الحرب العادية البسيطة لم تعد تكفيه في هذا الصراع المرير ، فبدأ
يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، وصور
أبطالاً خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ومظاهر الجبروت
عند الآلهة . ومن هنا ظهر « جلجميش » عند البابليين ، و « رستم »
عند الفرس و « هرقل » عند الاغريق .

ولم يكتف الانسان بذلك ، فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى
تستطيع القيام بما يعجز عن الوصول اليه . وهنا ظهر الجن في
اساطير الانسان . وأدخلهم دائماً في صراعه بين الخير والشر ، وبين
البشر والآلهة ، برغم أنه لا يراهم رأى العين .

غير أن أشياء أخرى في تفكير الانسان دفعته الى البحث عن
وسائل جديدة لبلوغ أهدافه - وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها
بنفسه في الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يلمس أشخاص الجن .

وهنا اتجه الانسان الى السحر . وأصبح السحر في عقيدة
القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادات . وشاع أنه بالرقية أو
التعويدة أو القسم يستطيع أن يجبر القوى الخفية على أن تطيع
الانسان . حتى أننا نقرأ في ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة
« افتح يا سمسم » يلزم هذه القوى أن تشق الصخرة وتفتحها .

ومهما قيل من تشابه الاساطير أساساً في كل أنحاء الأرض ، فإن
هناك اختلافاً واضحاً في تفاصيلها ، فكل أمة شكلت اساطيرها على
حسب ظروفها الطبيعية ذاتها .. فالمجتمعات التي استقرت في أرض
زراعية تشكل اساطيرها في أهم ما يشغلها وهو الماء والنماء وخصب
الأرض ، والمجتمعات التي عاشت على الصيد تشكل اساطيرها فيما
يشغلها من الحيوان وادوات الصيد وشياطين الغاب ، والمجتمعات التي
يحيط بها البحر تشكل اساطيرها على العواصف والأمواج والحصور
والجنيات .. وهكذا .

٢ - الأسطورة « والفولكلور » :

الأسطورة عادة هي قصة الأعمال التي يقوم بها أحد الآلهة - في العقائد القديمة - أو إحدى الخوارق الطبيعية من الإبطال .. تبدو فيها محاولات الإنسان لتفسير علاقاته بالكون والعالم ، أو تفسير وجود بعض العادات والنظم الاجتماعية أو الخصائص المميزة للبيئة التي يعيش فيها خالق الأساطير نفسه . وفي هذه الحال تنطوى على فهم ديني معين بالنسبة للشعب الذي رواها .

والفولكلور - أو القصص الشعبية - يزوى تراث البشرية في أطوارها الأولى من عادات وعقائد وقصص ، وفن .. حكايات بدائية لها أصلها الأسطوري دون شك ، ولها أيضا قيمتها الفنية والجمالية الخاصة .

أو بمعنى آخر : الأسطورة دراسة للصور البدائية الأولى للدين ، أما غيرها من الحكايات الشعبية القديمة فدراسة للعقائد والعادات البدائية التي ما زالت تمارس حتى اليوم . وفضل هذه الألوان مجتمعة هو أنها تقدم لنا صورة من التفكير القديم فيما يتصل بالدين أو بالعقيدة أو بالتقاليد أو بالبطولة والخيال .

٣ - الخرافة في الأساطير

إن التفسير العلمي للخرافة في الأساطير هو أن الإنسان البدائي كانت تفتحه رغبة فضولية في معرفة أمور الحياة ، جعلت الإنسان متعطشا دائما إلى المعرفة ، وإلى تنشيط ادراكه العقلي .

يقول الدكتور تيلور في كتابه « الحضارة البدائية » : « حين كان ذهن الإنسان في المرحلة الأسطورية يعجز عن تفسير أية ظاهرة ، ولا يجد لها سببا مقنعا ، كان يخترع أية قصة لكي يبررها ويفسرها » . ونجد مصداق هذا القول في كل الأساطير البدائية ، فمعظم هذه الأساطير ليس إلا محاولة لتفسير ظواهر معينة ، وللإجابة عن أسئلة غامضة مثل : ما أصل هذه الظاهرة أو تلك ؟ وما سببها ؟ كيف خلق العالم والإنسان ؟ وكيف أصبح على ما هو عليه الآن ؟ كيف تكونت هذه العادات والأوضاع والطقوس ؟ ما السبب في تعدد ألوان الحياة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي التي أدت إلى وجود الأساطير .. بل إنها أدت إلى وجود العلوم ، وإن كانت علوما بدائية تتخذ أسلوبا قصصيا . وفي هذا يقول الدكتور لانج : « لقد كان الناس في العصور القديمة يؤلفون قصصهم تبعا لنظرتهم الخاصة للأشياء ، وأسلوبهم في تفسير الأمور . وهذا وضع طبيعي ، لأنهم لم يكونوا يفكرون على أساس المبادئ التي يضعها الباحثون في العصر الحديث أمامهم عند تفسيرهم لهذه الأمور »

ويقول الدكتور مويلر : « إن الإنسان البدائي لم يكن يفكر كما نفكر نحن ، بل ولم يفكر بالطريقة التي نتصور نحن الآن أنه كان يفكر بها أيضا » .

أولاً : القصة الاسطورية قبل أندرسن

١ تمهيد

أدركنا مما سبق أن الادب المدون الذي نعرف أسماء مؤلفيه لم يكن أول ما عرفته البشرية من آداب في تاريخها الطويل . فقد سبق ذلك مراحل عدة كانت الآداب فيها غفلا من الاسماء ، وكانت الاجيال تتناقلها بالكلمة المسموعة ، إذ لم تكن هناك وسائل للتسجيل ، كما لم يوجد المؤرخون الذين يتتبعون التراث الذهني عبر القرون . ومع ذلك فقد انتقلت قصيدة الشعر أو الاقصاصة من جيل الى جيل بطريق الرواية والسمع . ولعل ما أدركته البشرية من هذا التراث بعد أن توافرت لها وسائل الكتابة والتسجيل لم يكن سوى آثار واهنة وقطرات من بحر غزير .

وبرغم ذلك فقد وصلنا من تلك الاحقاب السحيقة عدد لا يستهان به من القصص والملاحم التي كانت وما تزال الورد الصافي لعباقرة الادب والفن في جميع انحاء العالم .

فهناك البطوليات والاساطير الدينية التي كانت حافلة بالمشاهد الحية والصور الوصفية الرائعة .

وهناك « الامثال » التي كانت تجمع بين المتعة والمغزى الاخلاقي . والقصص التي كانت لا تهدف الا الى التسلية بفض النظر عما تركه هذه التسلية من اثر اخلاقي أو غير اخلاقي على الجماهير .

كما كان هناك ايضا القصص الشعبي القائم على الخيالات الشعرية المحدودة التي لا ترقى الى مستوى الملاحم ولا تستخدم القالب الدرامي .

وإذا نظرنا الى المجموعات الخمس من « الاقاصيص الاسطورية » التي خلفها أندرسن نجد أنها تحوى أشياء أخرى غير الاقاصيص الاسطورية ، فيها حكايات نثرية بعضها يصل الى الرواية الطويلة مثل « قصة من الكتيان » ، وهناك بعض الاساطير المبنية على العقائد المحلية مثل « الملك » ، وهناك الامثال مثل « القوقعة وشجرة الورد » ، وهناك اخيراً لقطات من الحياة اليومية ، وخیالات على شكل اشعار منشورة مثل المجموعة التي ضمنها كتابه « المصور بلا صور » ، والتي كان يمكن أن تدخل في نطاق قصصه الاسطورية ال ١٥٦ .

من هذا يتبين لنا أن أندرسن قد طرق جميع الأشكال القصصية التي كانت معروفة في ذلك الوقت . على أن ذلك النوع بالذات من

الاقاصيص القصيرة البسيطة التي تحتسوى على مضمون طبيعي أو خارق للطبيعة - هي أساس أعماله جميعا وهي العنصر الجوهرى بها .
أما جميع الأشكال الأخرى فهي لا تذكر إلا لوجودها بجوار هذا النوع الذى تفرد به أندرسن ونقل به القصة الأسطورية عامة إلى أجواء جديدة وصيها في قوالب مبتكرة لا يمكن أن تأتى إلا عن فنان مطبوع وفكر متوقد وأحاساس دقيق .

٢ - مرحلتان

لعل أول الاقاصيص المعروفة - والتي أصبحت بعد ذلك مصدرا ونموذجا لكل ما تلاها من قصص - هي تلك المقطوعات الصغيرة المسماة بالقصص الشعبية ، أو « الحواديت » مثل « عقلة الأصبع » و « سندريلا » وغيرهما . إن هذه الاقاصيص تعنى بالنسبة للتراث الأدبى ما تعنيه المفاصل في علم الحيوان ، وكلما توافر لها قالب « وتكنيك » سليمان تبينت أصالتها وازدادت أهميتها .

وأهم ما يميز هذا النوع من القصص هو البداية الموحدة التى تكاد تتفق عليها جميعا ، فننادرا ما نجد واحدة لا تبدأ بهذا « الكليشيه » الذى لا يتغير : « ذات يوم . . » أو « فى سالف العصر والأوان . . » .
وهى تختلف عن صور الأدب الفنى بما تتخذه من طابع متشابه فى عرض الأحداث ، فالحادث الذى يقع فى قصة ما قد يروى بالالفاظ نفسها فى القصة الأخرى . وعادة مايكون الأسلوب مختصرا وبسيطا للغاية وجاريا على نسق موحد مطرد كالحال فى قصة « الأخوان الثلاثة » الذين توصف حياتهم بعبارات تكاد تكون متشابهة . وكذا الأمر عند رسم الشخصيات : فالرجل الطيب شخص لطيف ، والمالك ذكى أما السكر فسكير فقط . بل وأحيانا مايكتفى بأقل من ذلك ، فالسكر معروف من أفعاله ولا شئ غير ذلك ، أما البطل وأفعاله فهما شئ واحد ومترادفان لكلمة واحدة . ولا يعرف القصص الشعبى أى نمط آخر لعلم النفس .

وكذلك الأمر بالنسبة لتصوير هذه القصص للعالم الذى نعيش فيه ، إذ تقول هذه القصص : إن هناك فئتين من الكائنات : فئة طبيعية وأخرى خارقة للطبيعة ، الفئة الأولى مغلوبة على أمرها عاجزة لا تملك حولا ولا قوة إزاء غيرها ، ولكنها قوية بانجذراتها فى الحياة . أما الفئة الأخرى وهى الخارقة للطبيعة فذات قوة وسلطان ، ولكنها مقيدة بقوانين خفية . فنحن نعرف مثلا أن الإنسان مرتبط بالكلمة التى تصدر منه - من الناحية الأخلاقية فحسب ، أما عفريت القمقم فهو عاجز تماما عن الرجوع فيما وعد به ، وليس له خيار فى هذا ، ولذلك فإن العفريت يضطر أحيانا - تحت هذا القضاء المحتوم من الطبيعة التى لا ترحم - إلى استعطاف الإنسان على مافيه من ضعف .

وكثيرا ما نرى الشخصيات تعود للظهور فى قصص أخرى بالسماوات والملايح نفسها : « فالملك » لا هدف منه - غالبا - سوى أن يكون والد « الأميرة » و « البطل » هو الذى يأخذ دائما هذه الأميرة ومعها نصف

المملكة . . ثم هناك الطفلة اليتيمة وزوجة الاب الخ . . . وتتفاعل هذه الشخصيات ازاء المواقف المتشابهة بطرق متشابهة ايضا : عندما تضيق الحال بالزوجين يأتى اليهما شخص مجهول ليقيم لهما العون نظير أن تعطيه الزوجة مولودها الذى مايزال جنينا ، واذا رغبت الاميرة فى كتمان أمر ما فانها تتظاهر بالخرس . وعندما يفقد الزوج زوجته يتزوج مرة أخرى من أجل ابنته الطفلة ، ولكن الزوجة الجديدة تدبر للطفلة المكاييد والحيل والدسائس التى تجعل أباهما يتنكر لها ، وهكذا . .

ان الاطار الذى يحيط بالقصة الشعبية هو « الطبيعة » بأجل صورها ، وهى لا تبدو فيها سافرة ، ولكنها تتدخل فى مصير الانسان بصورة غير مباشرة . وهى مكتظة بالكائنات الغريبة ولديها كثير من القوى الايجابية الفعالة ولكنها رمزية ايضا ، فعند وفاة العاشقين تزهق على قبريهما وردتان وتنبثق عند قبر العذراء زهور السوسن البيضاء . وفى استطلعة « الواصلين » أن يضعوا الطبيعة بكل مآلديها من قوى ومافيه من كائنات طوع ارادتهم ببعض الرقى والتعاويد .

وتعتبر هذه السمات الاخيرة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ القصة الشعبية ، فالقصة الشعبية بصورتها الاصلية تتضمن أساسا من السحر الذى كان يمثل « المعرفة » ويحل محلها عند الشعوب البدائية . وكلما بعدت القصة عن هذا الاعتقاد فى الخوارق الطبيعية قل نصيبها من البدائية .

ان القصص الشعبية عالمية المدى ، فانت تجد فى كل مكان القصص نفسها أو على الأقل الموضوعات نفسها برغم مايفض عليها أحيانا من ملامح اقليمية ، أو صبغات قومية ، فاذا أزيلت هذه القشرة بدا الجوهر واحدا فى كل انحاء الدنيا ، والسبب ببساطة هو أن القصة التى تصاغ فى قالب يتلاءم مع مكان معين لا تحمل فى طياتها امكانيات العالمية ، وبمرور الوقت نجد أنها قد أصبحت تقليدا محليا سرعان مايموت .

والقصص الشعبية بقدر ماهى غير مقرونة بوطن فانها ايضا لا عمر لها ، فالنصوص التى وردت فى الادب الكلاسيكى القديم تكشف لنا عن الخصائص القائمة نفسها فى أى بلد وفى أى زمان ، وليست الروائع التى خلقت كثيرا من الأدباء فى جميع انحاء العالم سوى استيعاب جديد لأساطير خالدة نشرت باللاتينية اليونانية منذ أقدم العصور .

المرحلة الاخرى من القصص الشعبى بعد المرحلة البدائية أتت بنوع من القصص لم يكن هدفه سوى اضحراك الناس . ويسمى هذا النوع بالفابليو Fabliaux وهو عبارة عن حكايات هزلية منظومة . وقد وجدت أول ماوجدت فى الاوديسا وفى بعض أعمال هيرودوت ، كما ظهرت فى أول هزلية فى التاريخ « ساتيريكون » التى كتبها « بترونيوس » أيام نيزون . وسرعان ما عبرت هذه القصص حدود فرنسا لتظهر فى أعمال « تشوسر » بإنجلترا ، وأعمال بوكاتشيو فى ايطاليا .

ولغة قصص الفابليو هى فى جوهرها اللغة نفسها فى قصص الاطفال على أن هناك عدة اختلافات أساسية بينهما .

فقصص الفابليو لا تبدى معرفة كبيرة بالنباتات والحيوانات بخلاف الاخرى .

كما ان قصص الاطفال لا تعنى كثيرا بأسماء الاشخاص الذين يرد ذكرهم فيها فاننا نجد غالبا « الراعى » و « قاطع الاشجار » و « الصياد » و « الرجل الفقير » او « عقلة الاصبع » .

اما قصص الفابليو فانها تورد الاسم العلم لكل شخصياتها تقريبا وان كان هذا يأتى بطريقة هزلية بطبيعة الحال .

ومن ناحية اخرى فان قصص الاطفال تتحدث عادة عن ثلاثة اجيال مختلفة : الاباء والابناء والحفدة ، وتحكى عن الحب الذى ينمو بين الصغار والذى ينتهى بهم الى الزواج .

اما قصص « الفابليو » فهي لا تهتم كثيرا بالاجيال المختلفة وتكتفى بتقديم لقطات من الحياة الزوجية .

وهناك فرق من ناحية الموضوع ايضا : فموضوع قصص الاطفال هو اطفال الدم الملكى والاطفال العاديون معا ، ونجد فيها ايضا الفلاحين والصيادين . اما اصحاب الحرف فلامكان لهم بها ، كما ان هذه القصص تتضمن دائرة واسعة من العلاقات الانسانية بين اناس ذوى مراكز مختلفة مما ربما لا يحدث فى واقع الحياة .

اما قصص « الفابليو » فتتسم بالواقعية ، كما انها تموج باصحاب الحرف المختلفة وشخصياتها من الطبقات الفقيرة فى غالب الامر . وتكاد تكون الفابليو - بواقعتها العادية - قريبة من « الفارس » - ذلك اللون الدرامى المفرق فى الكاريكاتورية الصارخة .

وتتردد فى قصص الاطفال الاشياء الزاهية مثل المجوهرات والذهب والرخام . اما قصص الفابليو فلا تعرف هذه الاشياء وأكثر من ذلك : فبينما يحصى اطفال القصص الاولى قطع الذهب لا نجد مع الاخرين سوى اصغر القطع النقدية ، وفى الوقت الذى تهتم القصص الاولى بوصف الجمال والقبح الانسانى لا نجد فى الاخرى اى اهتمام بالمظهر الخارجى .

وفى قصص الاطفال حد فاصل بين الطيبين والاشرار ، وهى تقف عند هذا الحد ، أى انها لاتزج فى هذا التمييز بالدراسات السيكولوجية . اما فى قصص الفابليو فلكل الرجال ملامحهم المميزة : هناك المجد ، والكسلان وهناك الفطن والغبى .

وثمة فارق اخلاقى بين قصص الاطفال وقصص الفابليو : فبينما تتسم الاولى بالطهر المطلق نرى الاخرى على النقيض ، فهي تبدى ميلا الى الفسق ، وأحيانا تناصر المرأة الخاطئة على زوجها الغبى .

وتقودنا المقارنة التى اوردناها بين هذين النوعين من القصص الشعبى الى قضية مازال موضع اهتمام جميع المهتمين بالادب الشعبى فى أنحاء العالم ، ولقد اثار هذه القضية ذلك التساؤل : هل القصة الشعبية اخلاقية او غير اخلاقية ؟ هناك من يقطع بانها غير اخلاقية

ويدلل على ذلك بعدد من القصص ومنها قصة « الاميرة وراعى الخنازير »
التي لم تكن في صورتها الاصلية - اى قبل ان يتناولها اندرسن بالتعديل
- سوى قصة نصاب يفتصب اميرة بريئة .

على ان الاجابة عن هذا السؤال سوف تبدو سهلة اذا ما تذكرنا
الفرق بين النوعين اللذين ذكرناهما آنفا : ان القصة البدائية اخلاقية :
فالبطل والبطة يمثلان قوى الخير التي تنتصر في النهاية على الشرار .
اما قصص المرحلة الاخرى فهي لا تهتم الى حد كبير بالاخلاقيات ، وهي
تحس بعطف زائد على المتشردين ، بل انها احيانا ماتقدم المتعة والتسلية
عن طريق التندر بفضائل الطبقة المتوسطة والسخرية من اكابر الناس .

ومن المفيد ايضا ان نذكر فرقا آخر بين القصص البدائية وقصص
المرحلة الاخرى - وهو ان الاولى اكثر اصاله من الاخرى ، ان قصص
الفابليو مثل قطعة الجلد الجميلة المصنعة ، اما القصص البدائية فتعتبر
حيوانا حيا مازال ملفعا بفرائه .

واخيرا لو نظرنا الى الحياة الفكرية والروحية التي نبتت فيها
القصص الشعبية قبل اندرسن نجد انها كانت متأثرة بثلاثة افكار :

أولا : الوجود اعجوبة ، والواقع نفسه معجزة .

ثانيا : العناية الالهية - او قوى الخير - تقدم عونها للتعسرين اذا
كانوا طيبين .

ثالثا : لا بد لنا من ان نقاسى كثيرا قبل ان نستطيع قهر القوى
المناهضة لنا ، ولن يخيب جهد الذى يسمع نداء ضميره ولا يتخلى
عن واجبه .

٣ - القصص الشعبى والادب

لا شك ان القصص الشعبى قد لقي استحسانا جماعيا منذ اقدم
العصور من الشعوب التي كانت تسمع فقط دون ان تتاح لها فرص
التعلم والقراءة ، وبرغم ذلك فلقد واجهت هذه القصص عداء سافرا
من الشعوب القارئة . ولعل اسباب قلة ماوصلنا من القصص الشعبى
الخاص بالعالم القديم هو ان اناسا مثل ارسطو وشيشرون وغيرهما من
الكتاب الذين ملكوا ناصية الفكر في عصرهم - كانوا متعاضمين على مثل
هذا النوع من الادب .

ولقد عرف التاريخ محاولتين - قبل ظهور الطباعة - قام بهما
بعض الباحثين لتدارك هذا التراث المهم :

كانت المحاولة الاولى حينما اقترب رهبان البوذية من عالم
الاساطير المعجيب في الهند ليستفيدوا منه في تطعيم طقوسهم وادعيتهم
بالمثلة والصور الحية التي تجعل تلك الطقوس اقرب الى قلوب العامة
واكثر جذبا لهم .

أما المحاولة الأخرى فكانت في أواخر العصور الوسطى حينما قامت الكنيسة المسيحية بالعمل نفسه ، وليس من الصعب أن ندرك الحوافز التهذيبية التي دفعت القسس الموقرين إلى اللجوء إلى القصص البدائية دون « الفابليو » لما تتسم به الأخيرة من تهكم وسخرية بغير أخلاقية .

وبعد هذا الإهمال الزائد الذي لقيته القصص الشعبية من الأقدمين لم يتصور أحد أن يوليها عصر النهضة اهتمامه بل أن يضعها في تلك المكانة المشرفة ، ولقد استفاد الأدب الشعبي من ظهور المطبعة فسرعان ما تلقت الأيدي في لهفة الطباعات المتواليّة من « ديكامرون » لبوكاتشيو و « الليالي المرحّة » لسترابارولا وغيرهما من الأعمال التي تدين بجزء كبير من نجاحها لما استقتته من مادة من القصص الشعبية وقصص « الفابليو » التي تظهر في جلاء في كل منها .

ورفض الشعر الفرنسي الكلاسيكي - مثل شعر « بوالو » ودائرته الأدبية - الاعتراف بالقصة الشعبية ، ولكن سرعان ما انتصرت في صراعها ضد الكلاسيكية واستعادت مجدها الغابر . ويرجع الفضل في هذا إلى « بيرو » وهو من أول الأبطال الذين ناصروا الحديث على القديم . وتعتبر مجموعته القصصية « الأوزة الأم » أول وأشهر مجموعات القصص الشعبي . وجاءت بعد « بيرو » عدة محاولات لترجمة القصص الشعبي الشرقي - وعلى رأسها ألف ليلة وليلة - إلى الفرنسية وغيرها من اللغات .

ولعل أهم ما في الأمر أن هذه المحاولات كان لها أثر ملحوظ على أدب القرن الثامن عشر من الدراما إلى الأقصوصة إلى الرواية الطويلة . ونذكر على سبيل المثال « الأيكة » لكريبلون الصغير وبعض أعمال « ديديرو » ثم الهزلية التي كتبها الكاتب الدانمركي « برام » بعنوان « الحالم » . وربما لا يعرف الكثيرون أن « فولتير » - خير كاتب يمثل ذلك العصر - قد تأثر إلى حد كبير بروح الإقاصيص الأسطورية ، وأعجب أيما أعجاب بالقصص الشعبية الأوروبية كانت أو شرقية . وبدأ ذلك الأثر واضحا في أهم أعماله : « أساطير وحكايات فلسفية » و « كانديد أو التفاؤل » و « زاديغ أو القدر » وغيرها .

ومما هو جدير بالذكر أن فكرة كتابه « القدر » مبنية على قصة شعبية شرقية اسمها « الملك والناسك » .

واقتنى أثر فولتير عدد كبير من الكتاب ، ونستطيع أن نقول : أنه حوالي عام ١٨٠٠ كانت القصة الشعبية قد تحررت من أقمطتها وتحولت إلى فن أدبي له أهميته .

وبظهور الحركة الرومانتيكية في ألمانيا التي كانت بشيرا بالحركة الرومانتيكية في الدانمرك - بلغ الاهتمام بهذا الفن الأدبي الجديد قروته . فلم يقتصر الكتاب الدانمركيون أو الألمان أمثال « هوفمان » و « أوهلنشليجر » و « أنجلمان » بادخال روح الإقاصيص الشعبية.

وموضوعاتها في أعمالهم المسرحية ، بل لقد طمحوا الى تجديد شباب
القصة الاسطورية ذاتها .

والواقع ان الربع الاول من القرن الماضي كان عصرها الذهبي ،
فلقد استحوذت في تلك الآونة على خيال العالم ، وغذته في جراحة بأحلام
اليقظة والتأملات الوردية وخضبتة في الوقت نفسه برمزية أكثر عمقا .
على انه برغم كل الجهود التي بذلت لبث حياة جديدة في الاقصوصة
الشعبية فات الجميع الاهتمام بأمر في غاية الأهمية :

فقد أهملوا القلب المتماسك المحدود الذي كان موضع احترام
القرن الثامن عشر ، أهملوه لكي تصبح للكتاب امكانيات التصرف بحرية
أكثر في عالم التخيلات . ونسوا في هذا أن القصص الشعبية القديمة
كانت مقيدة الى درجة كبيرة بنظرة معينة لحياة تختلف تماما عن الحياة
في العهد الجديد للرومانتيكية . لم يدركوا أن تخيلاتهم المضطربة ،
ورؤاهم الميتافيزيقية تختلف في الواقع عن الايمان البكر الذي تتسم به
القصة الشعبية .

وبرغم أن تلك الفترة كانت تعتبر العصر الذهبي للقصة الشعبية
فإننا لا نكاد نجد انتاجا يستحق الاهتمام سوى ذينك الكتابين اللذين
قراتهما أوروبا كلها - ومازالت - وهما : القصص الاسطورية لهوفمان
ومجموعة القصص الشعبية لآخوان جريم .

والسبب في شموخ هذين العاملين وسط كل الانتاج الذي ظهر
في تلك الفترة هو أن مؤلفيهما هما الوحيدان اللذان أدركا أن ثمة رابطة
بين الاساس والشكل في القصص الشعبية وأن هذه الرابطة لا يمكن
تحطيمها .

ولقد وجه « هوفمان » القصة الشعبية وجهة جديدة بتحويلها
الى فن جديد وصبها في قالب القصة الخيالية ، وكان ذلك في غاية
الأهمية لاندرسن . أما القصص التي جمعها آخوان جريم فقد كانت
في متناول أبسط الافهام والمدارك ، كما أنها تتميز باحتفاظها بجزء
كبير من طابعها الاصلى . لقد بذل الآخوان كل جهد صادق وأمين لإبراز
المضمون الاصلى في لغة تكاد تكون مطابقة للغة الكلام . لقد حاولوا
- باختصار - أن يبعثوا من جديد القصة الشعبية بكل ما بها من فطرة
وأصالة .

وهنا تسلم الشعلة هانز كريستيان أندرسن .

ثانيا : قصص أندرسن الاسطورية

١ - الفكرة

كان على أندرسن ان يأخذ على عاتقه استمرار القصة الشعبية ، ولكن لكي يفعل ذلك استلزم الامر تدخلا شخصيا من جانبه . وقبل ان ينجح في اعادة الشباب الى فكرة القصة الشعبية ومضمونها وقالبها كان لابد من مروره بعملية من التطور الذاتي ، الامر الذي كان شاقا عليه للغاية . اذ كان من الضروري ان يصبح ذلك واقعا ملموسا له ، والا أصبحت قصص أندرسن واحدة من المجموعات المتعددة التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، لا مكانة لها سوى انها تحتل بضعة سطور في كتب التاريخ الادبي .

ويدين أندرسن بتجديده للفكرة في القصة الشعبية الى «أورستد» أكبر الباحثين الدانمركيين في ذلك العهد ، ففي أحد أعماله المبكرة اتخذ أندرسن فكرة ما - دون ان يقتنع بها - وهي كون الانسان مرتبطا بالطبيعة ومقرونا بإرادتها . وترجع هذه الفكرة الى العصور الوسطى ولكنها كانت مشكلة قائمة في الفترة الرومانتيكية . وكان العمل الذي ضمنه أندرسن هذه الفكرة هي القصيدة الدرامية المسماة « أجنيث والجنى » وتضايق أورستد الذي كان يعتبر أول من تنبه لنبوغ الفتى، تضايق أن يلجأ أندرسن الى مثل هذه الأفكار التي انتهكها الرومانتيكيون، فأخذ على عاتقه تعليم أندرسن أفكاره التي ضمنها كتابه « روح الطبيعة » وهو حصيلة عمره الطويل وقراءاته الكثيرة في الروحانيات والعقائد .

والفكرة الرئيسية التي تضمنها كتاب « أورستد » هذا بسيطة وعظيمة في الوقت نفسه : فهو يقارن بين الروح والطبيعة ، بين الواقع والمعجزة التي تعتقد في هذا العصر مجرد وهم ، انه يقول : ان قوانين الطبيعة ما هي الا أفكار الله ، وان الطبيعة هي الروح ، والواقع نفسه معجزة . وتلك هي الفكرة التي اخذها أندرسن ، وهو يوردها بطريقته الخاصة فيقول ، وكثيرا ما كان يردد ذلك القول : « ان الواقع أجمل قصة اسطورية » ، وبهذا الاعتقاد المبني على الاقتناع التام وضع أندرسن قدمه على أول الطريق الذي أنعش به القصة الاسطورية وبث فيها روحا جديدة ، كان الواقع في نظره أكثر روعة وجمالا من ثمرات الخيال .

ان الفكرة في اقاصيص أندرسن تستمد قوتها من الملاحظات الصغيرة الدقيقة لهذا العالم الملموس ، ومن احداث الحياة التي قد تبدو غير هامة ، ولكن نفس الشاعر كجهاز الرادار أو كالفيلم الحساس تنعكس

عليه أصفر الهنات . وعندما يلتقط الفنان إحدى هذه اللفتات الصغيرة التي تمر بحياته ، ويدخلها بمعمل أفكاره باحثا في أسبابها ونتائجها تكون النتيجة خروجه بأقصوصة جديدة رائعة

لقد حاول أندرسن أن يستقل بنفسه عن مضمون القصة الشعبية القديمة ، ومن ثم فأننا نجد أنه قد استعمل الحذر والحكمة في طرق الناحية الأسطورية وخوارق الطبيعة . وفي قصته « الصديق الغائب » و « الاوزات البرية » نجد آثارا من الرمزية السحرية التي كانت موضع اهتمام القصاصين القدامى : ففي القصة الأخيرة نجد أن « جون » كانت لديه ثلاث ريشات من ريش الاوز ، وزجاجة صغيرة بها بضع قطرات من سائل سحري . وقبل أن تدخل الأميرة للاستحمام يكون جون قد ألقى بالريشات والسائل السحري في الماء الذي تستحم منه ، وما أن تضع الأميرة الماء على جسدها حتى تنقلب في الحال إلى « ملاك » . . . وما إلى ذلك من المشاهد الخيالية التي كانت تمتلئ بها القصص في ذلك الوقت .

ولكى نعرف إلى أي مدى تطور أندرسن بأفكار القصة الأسطورية نجد أن قصة « الاوزات البرية » التي كتبها في بدء حياته القصصية على طرف النقيض من قصصه الأخيرة ، ولندكر على سبيل المثال « قصة أم » ، « إذا كان الليل » ، والبحيرة ، والشجرة الشائكة ، وكلها استطاعت النطق في القصة ، وإذا كانت هذه تشخيصات لا نعرفها في حياة الواقع فإن حب الأم الذي يصوره أندرسن لنا هو من أعظم القوى الطبيعية وأعجبها لأولئك الذين يعرفونه . أو فلننظر إلى نوع النهاية التي كان يميل إليها أندرسن مثل نهاية « بائعة الكبريت الصغيرة » حيث نرى حركة الموت يسبقها احساس بالنشوة والراحة يسمو بنا فوق العذاب الدنيوى .

ولكن أندرسن لم يجمد عند الأفكار التي لقنها آياه أورستد ، بل لقد أضاف إليها شيئا جديدا وهو أن العناية الإلهية تحمى الصفوة التي تختارها ، وتمنحها كل عون ومساعدة . ولقد كان لهذه الفكرة أصل في القصص الشعبية القديمة ، غير أن ثمة اختلافا كبيرا بين معالجة أندرسن لهذه الفكرة ومعالجة أسلافه ، فلقد كان إيمان أندرسن عميقا بالعناية الإلهية كما أسلفنا ، ومن ناحية أخرى فإن المدرسة الرومانتيكية القديمة كانت تعتقد أن العبقرية المختارة يأتيها العون عن طريق المصادفة ، أما أبطال أندرسن فإنهم يستحقون النجاح الذي يصلون إليه .

لقد كان أندرسن يحسب أنه من الصفوة المختارة ، وإن في استطاعته ، مثل أورستد ، أن يتصفح كتاب الطبيعة الضخم . وأنا لنجد هذا الإدراك بأنه مبعوث للقيام برسالة ما في إحدى قصصه الأولى « خطوات الحظ » : لم يكن أندرسن بالفطرسة التي تجعله لا يعتقد أن كل إنسان على وجه الأرض مكلف واجبا نحو إنسانيته ، سواء كان هذا الواجب كبيرا أو صغيرا .

وأضاف أندرسن على ذلك فكرة ثالثة ، وهي ذات أهمية كبيرة

لنا لانها تساعدنا على تحديد « الحركة » في قصصه . ومؤدى هذه الفكرة أن : « الحياة محفوفة بالصعاب »

عند بداية القرن التاسع عشر كانت القصص الاسطورية الجديدة في الادب الالماني والدانمركي مملوءة بالبهرج الكاذب والالوان البراقة التي توحى بأن الحياة ليست سوى لعبة تافهة .

واذا بأندرسن يصرخ في كل صفحة من صفحات قصصه مناديا بفلسفته الواقعية : « لا بد لنا من اجتياز كثير من العقبات الصعبة » ولولا هذه الصرخة المدوية ما أصبح أندرسن الباعث للقصة الشعبية .

ان الرجل الذى خلف هذه الصور الحية الحديثة عاش حياة شجاعة شامخة ، حياة من العمل النابض من الطموح ، والتسليم الذى يبعثه الايمان ، ولقد كان يتمتع بصراحة فائقة منحتنا صورة أمينة لهذه الحياة ، صورة مشربة بالواقعية الحادة .

٢ - المضمون

بعد هذا العرض للأفكار التى تطرق اليها أندرسن فى أقاصيصه يأتى دور المضمون ، وأعنى بالمضمون هنا عناصر التجربة الشخصية التى تتضمنها قصصه .

لقد استغرق الامر بأندرسن وقتا طويلا قبل ان يتعلم الكتابة فى هذا اللون الدقيق الذى يحتاج الى عناية فائقة ، فقد كانت ملكاته فى بداية الشوط جافة ومهوشة ، وكل ماكان فى مقدوره انما هو انتاج اعمال غير مترابطة ولا منسقة ، تعوزها الفكرة والقالب ايضا .

ولم تكن رواياته الطويلة ، برغم ما بها من امتاع ، سوى مجموعة من الخواطر المتراكمة فى غير ما بناء متماسك أو قالب منظم . وكان الموضوع السائد فى كتبه الاولى هو الكفاح من أجل الحياة .

ويعتبر كتاب « ضارب العود » مثالا لذلك : : فهو يصف الانسان الذى ناءت عليه أحداث الزمان . وهو كتاب بلا فكرة . كل ما أراد أن يقوله هو أنه يجب أن تذلل العقبات المادية التى تواجه العبقریات التعسة . انه مشروع انساني كان أولى أن يكتب فى مقال لا فى رواية . ولا يمنع ذلك من كون الكتاب مليئا بالحياة والواقعية .

واننا لنذكر بوضوح هذا التكديس للخواطر والثروات الوصفية للأشياء التى رآها أو خبرها اذا ما ألقينا نظرة على بضع فقرات من قصة حياته : انظر الى بيته : أمه امرأة قوية الشخصية ذات عزيمة من حديد واحساسات متفجرة ، تؤمن بكل شيء تسمعه من القسيس أو ساحر القرية على السواء . وكان على ابنها أن يؤمن بعقيدتها أو عقيدة أبيه الرجل المنطقي وناقد الانجيل ، كما أصبح الشاعر نفسه كذلك تماما فيما بعد حتى الممات . وكان هذا الوالد أكثر غرابة وشذوذا من ذلك ، فقد كان اسكافيا يعمل بنفسه دون مشاركة أحد وكان عبقرية ريفية لهيدان فنانتان يجيد بهما صنع كثير من الأشياء الدقيقة . وكانت حياته تسيطر عليها

الأوهام ، ولقد تطسوع في الجيش ليحارب تحت امرة نابليون ، ولكنه سرعان ما عاد من الحرب محطم النفس والروح والبدن . وكان جد أندرسن مجنوناً لا يكف صبيان القرية عن تعقبه والجري وراءه الخ ..

واذا أضفنا الى كل ذلك ما قاساه من أجل أن يكتشف اتجاه مواهبه ، ولكي يجعلها موضع احترام النقاد الادبية في عهده ، فسوف يكون مفهومه أنه لا يوجد كتاب له أساس واقعي أقوى من قصص أندرسن الأسطورية . ولكن بدون ذلك فإن هذه القصص الأسطورية لم تكن لتصير على ما هي عليه . ولو وقف أندرسن عند تقليد الوجهه الخارجية للقصص الأسطورية القديمة ما كان لينتج شيئاً مما نراه الآن : صورة كبيرة للحياة بكل ما فيها من خشونة وصدق .

ولقد كان أندرسن أخصب شعراء الدانمرك فيما يختص بعالم الواقع ، ففضلاً عن سعة أفقه سافر الى ثلاث قارات ، كما أن الحياة في الخارج أرهفت ادراكه بالطبيعة ، وأصبح مثل « يولييسيس » خبيراً بعادات عدد كبير من الشعوب . وأخيراً فقد كان أكثر خبرة وعلماً بعادات بلاده وتقاليدها .

واذا أجرينا قطاعاً رأسياً في أعماله نجد أنها حافلة بفقرات وصفية لجميع المواقف في الحياة . ولا يدانيه سوى (بلزاك) في وصف هذا العدد الضخم من فئات الشعب على مختلف المستويات : فهذا أحد العبيد رهين الأصفاة في زنزانته ، وهذه فتاة تكاد تموت من البرد في الشارع ، وهذا هو الحارس الليلي ، وهذا قسيس ، وذلك فنان ، وتلك المجتمعات النبيلة ومجتمعات الطبقات المتوسطة .. الخ ..

أما القطاع الأفقي فيكشف لنا كيف وصف أندرسن كل أجزاء الدانمرك في عهده : فأننا نجد جزيرة (فينين) في قصة « الصديق الغائب » وكوبنهاجن في « خطوات المجد » وزيلاندة في القصص التي كتبها ابان اقامته في بيوت الأعيان مثل « العائلة السعيدة » .. الخ ..

ويمكننا القول بأن أحداً من معاصريه لم يكشف عن احساس بجمال الطبيعة مثلما كشف أندرسن . وقد كانت كتابات شبابه غير حافلة بما يبين العلاقة الوثيقة بين الشاعر والطبيعة ، ولكن بعد رحلته الأولى الى ايطاليا انبثق بين جنبيه احساس طاغ بجمال كل ما تقع عليه عيناه في الداخل والخارج كان الشاعر يدرك سر كل زهرة - سواء كانت برعماً صغيراً أو وردة متفتحة تبهر بجمالها الأعين والقلوب . ان الفتاة الصغيرة في «ملكة الثلج» تكشف للأزهار عن مكنون قلبها .

ولقد كان أندرسن على معرفة تامة بمباهج كل فصل من فصول السنة على حدة ، وكشف لنا عن هذه المباهج بأدراك الفنان الموهب الذي لا تفوته فراشة هائمة أو جبل كبير توجهته الثلوج ..

حتى أولئك الذين لا يهتمون بأساس العمل الشعري وأفكاره قدر اهتمامهم بقلبه الفني - تقدم لهم قصص أندرسن قدرا غير قليل من المتعة، فلقد كان أندرسن منذ صباه يغذى ملكاته الشعرية من مدرستين شعريتين كانتا تقتسمان الدانمرك في ذلك العهد . فتعلم من الشاعر «أوهلنشليجر» كيف يستعمل عينيه ، وكيف يستفيد من هذه ألهة الربانية التي جعلت في مقدوره أن يرى ويحس كل شيء ، ويرجع الكمال الحسى الذى اتسمت به أعمال أندرسن النثرية فى الأصل الى الأسلوب الشعرى لمنظومات «أوهلنشليجر» .

أما مدرسة «هايجرج» فاقده أخذ منها أندرسن الكثير حتى لقد اعتبره البعض من تلاميذها المخلصين . وإن تفوقه فى إبراز الصبغة المحلية فى قصصه ، وفى رشاقة عبارته ، وفى ومضات المرح التى تنتشر فى كتابته من آن لآخر - كل ذلك يعود الى ما أخذه عن هايجرج . ولكن أهم ما يدين به أندرسن لهايجرج هو إيمانه الذى لم يتطرق اليه شك بأن جميع الألوان الأدبية - حتى النثر الذى كان يحتل مكانة متأخرة فى تلك الحقبة من التاريخ الأدبى - يمكن أن تكون طريقا الى الشهرة والخلود .

وفى نظرى أن أندرسن لو لم يتعلم غير هذه النقطة لكفاه ذلك ، فلا شك أنها هى التى كانت تمد فى عمر آماله وعزيمته حينما كان ينتقل من لون أدبى الى آخر دون أن يحقق ما كان يصبو اليه . وهى التى جعلته يموت قرير العين وهو يعلم أن العالم لا يعترف به - وهو الذى كتب فى كل شيء - الا ككاتب قصص أسطورية ..

ان أندرسن لو لم يرسخ فى قلبه هذا الايمان الذى تلقاه من «هايجرج» لما مات منتحرا بعد أن يلقي بجميع أعماله فى النيران ! وأى خسارة كانت تلحق بالانسانية لو حدث ذلك ؟

لقد جرب أندرسن حظه مع الرواية الطويلة ومع المسرحية ، ومع أن ما خلقه فيهما قد اثار بعض الاهتمام فانه لم يكن اهتماما باقيا . ويرجع ذلك الى ان هذين اللونين من الكتابة بما يتطلبانه من استعداد فنى ضخم - كانا فوق مستوى معلوماته ومداركه البسيطة . ولقد كتب بعض القصائد الطيبة ، ولكن النظم لم يسلم له القيادة على أية حال .

على أننا اذا تتبعنا الخطوات التى بذلها أندرسن فى النثر والشعر منذ أول المطاف ، فانه سيكون فى مقدورنا أن نلاحظ فى غير صعوبة أن ثمة عدة أماكن اثبتت فيها مواهبه وجودا لا يمكن تجاهله ، فكثيرا ما تصادفنا فى أعماله مقطوعات نثرية تتكشف فيها جوانب خفية من الحياة تبهر الأعين، كما لو أن ضوءا ساطعا قد سلط عليها على حين فجأة . ولقد نشر مجموعة من الصور النثرية هى بمثابة الأجنة لأعمال فنية فى كتاب أسماه «المصور جلا صوره» ، وتبدو طريقته الشعرية فى هذا الكتاب أكثر مما تبدو فى أى عمل آخر .

وتعهد أندرسن البذرة الشعرية التي تضمنها هذا العمل المبكر حتى غشت ذات كيان ، وهو - وان كان بسيطاً - استطاع به أن يصل الى خلق القصة الأسطورية .

ومن الواضح أن أقاصيصه يمكن تقسيمها الى قائمتين :

في الأقاصيص التي تنتمي الى القائمة الاولى لم يتجاوز أندرسن كونه راوياً - من جديد وبلغة تقارب لغة العامة - لأقاصيص الأولين . ولندكر من هذه القصص « القداحة » و « الأميرة الحق » و « راعى الخنازير » ثم « ملابس الامبراطور الجديدة » - وهذه القصة الأخيرة مستقاة من أصل اسباني . ولا بد من أن نذكر أن الشاعر قد جعل من قصص الفابليو والقصص البدائية مصادر له . ولقد أبقي على الملامح الجوهرية في تلك القصص مثل ضروب الخداع القديمة، بل انه بعث أسلوب التجريد والتبسيط المتناهي الذي كانت تتسم به . ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن أندرسن قبل أن يعالج القصة الأسطورية كان قد أخذ يكتب قصصاً مسلية منظومة مثل « بائعة اللبن والجرة » التي كتبها على طريقة القرن الثامن عشر مقلداً (ويسيل) و (لافونتين) الكاتبين اللذين بعثا قصص « الفابليو » من جديد .

أما القائمة الأخرى من قصص أندرسن فهي تتضمن قصصه الجادة ، مثل : « عروس البحر الصغيرة » و « الصديق الراحل » و « ملكة الثلج » و « الحذاء الأحمر » و « قصة أم الخ » .

ولقد مارس الشاعر هنا كل حرية مع النماذج التي راقى له ، فلم يكن يعمل الا مدفوعاً بخياله الخاص . وبطريقته الخاصة : مزج المرح بالعاطفة، والعطف بالسخرية ، والتعقل بالاندفاع .

ومعنى هذا أن أندرسن عندما كان يتناول « الفابليو » - التي تستلزم ممارسة الفكاهة والنقد - فانه لا يفرض تغييرات بعيدة الغور على هذا النوع من التراث ، أما اذا كان يعالج مادة من مواد القصص الأولية ، فانه يقف ازاءها موقفاً مستقلاً للغاية . أو بمعنى آخر كان أندرسن يبعث « الفابليو » ويبث فيها الروح من جديد ، ولكنه طور القصص الأسطورية البدائية .

ولقد وقف أندرسن هذا الموقف بعد كثير من التفكير ، ولكن لابد من اضافة حافز آخر ، من الأهمية بمكان ، يلقي الضوء على هذه العملية الجمالية . فلقد كان أندرسن يطمح الى خلق نوع من الأدب الشعبي العالمي - وفي قالب القديم نفسه - يتشرب كل الألوان الأدبية الأخرى .

وكان من عادته أن يناقش القضايا الأدبية والفنية في رواياته ، وفي احداها ذكر رأيه عن أدب المستقبل . ومؤدى هذا الرأي أن أدب المستقبل لا بد أن يكون موجزاً ، وجلياً ، وغنياً . وكثيراً ما كان يردد هذه الألفاظ في خطابه . ولقد كان يطمح الى كتابة قصصه طبقاً لهذا الرأي .

على أن أندرسن لم يكتفَ بالأقاصيص يَبث فيها الروح أو يطورها ،
بل انه تعداها الى الألوان الأدبية الأخرى كي يصب موضوعاتها من جديد
في قصص أسطورية . وهكذا فان في مقدورنا أن نستشف المدخنة
الهزلية في قصة : « الجندي الصفيح الثابت » ، والهزلية الاخلاقية في
قصة « الراعية وكناس المدخنة » . وبهذه الطريقة يمكن أن نقول أن
أعماله قد أصبحت نوعا من الأدب العالمي المتنقل .

وقد أصبحت قصصه بهذا المعنى بالنسبة للقرن التاسع عشر وربما
بالنسبة للعشرين أيضا - كما كانت روايات فولتير بالنسبة للقرن الثامن
عشر ، وتشبه أكثر أقاصيصه عمقا روايات فولتير ، فهي أقاصيص قصيرة
تتضمن فكرة كبيرة . وفي مقدورنا أن نطلق على هذه الأقاصيص عناوين
مزدوجة كما كان يفعل فولتير في «زاديج أو القدر» و «كانديد أو التفاؤل» .
فيمكننا أن نقول بالنسبة لأندرسن : « قصة أم أو كتاب القدر المخلق » ،
و «بائعة الكبريت الصغيرة أو الاحسان» . ولكن ربما كانت هذه العناوين
المزدوجة أقل ملاءمة بالنسبة لأقاصيص أندرسن ، لأن الفكرة فيها واضحة
برغم ان الشاعر لم يكن يدق على وترها دقا مباشرا .

الفصل الثالث

قصص أئمة شرايح من حياتهم

ملحمة :

الشريعة الأولى : الحذاء الأحمر

الشريعة الثانية : الكروان

الشريعة الثالثة : بائعة الثقاب الصغيرة

الشريعة الرابعة : الكرة والخدروف

قصص أندرسن شرايح من حياة

مقدمة

يتضمن هذا الفصل عددا من أقاصيص هانز كرستيان أندرسن الاسطورية . وأنا لم أقصد هنا أن أضيف إلى الكتاب بضعة صفحات لا طائل ورائها ، أو إلى أن تكون هذه الصفحات مهداة إلى طفلك ، برغم أنها ستكون ذات متعة فائقة له ، وإنما كان همى الأول فى الواقع هو أن أضرب بعض الامثلة لما سبق ان رددته من أن حياة أندرسن كانت الحقل الأول الذى ضرب فيه بقلمه حينما اتجه بقصصه نحو الواقعية .

وهذه هى نقطة العبقرية لدى شاعرنا الكبير ، فاندرسن استطاع أن يزوج الواقع بالخيال ، ويخرج منهما نتاجا هو مزيج رائع من الاثنين . ان أندرسن لم يكتف بقراءة الاساطير التى تداولها الناس فى أيامه ، وروايتها من جديد ، بل أضاف إلى ذلك «أساطير» أخرى استقاها من «واقع» حياته .

لقد وضع أندرسن حياته على المشرحة وأعمل فيها مبعضه الحساس ، فجاءت كل شريحة عملا ينبض بالتجربة والمعاناة الحق .

وسأورد قبل كل أقصوصة التجربة الضاربة فى أعماق حياته والتى استلهم منها أندرسن تلك الاقصوصة . ان كل تجربة من تلك التجارب بمثابة البذرة التى ألقى بها القدر فى تربة حياته فتعدها أندرسن - الخلاق - وسقاها من روحه وفنه فخرجت شجرة ظليلة وارفة مثمرة .

فالى روعة التجربة ، وعظمة الخلق .. الى السر الذى ربط أندرسن بالخلود ..

الشرحة الأولى

« ... حان يوم التعميد الديني لسن البلوغ ، وأقبلت أمه وجدته تسيران في تردد وحياء داخل الكاتدرائية الكبيرة لتسمعا هانز وهو يجيب عن أسئلة المعمدان ويؤكد بإجابته استمساكه بأهداب الدين . وكان يرتدى بذلة أبيه البنيصة - بعد أن أعادت لتناسبه - وقميصا أبيض ناصعا ، وكانت تلك أول مرة في حياته يرتدى فيها مثل هذا أنقيص وحذاء جديدا . وكان أخشى ما يخشاه ألا يرى كل من في الكاتدرائية حذاءه الجديد ، ومن ثم حرص على رفع « بنطلونه » ليبدو الحذاء بأكمله واضحا لكل ذي عينين وقد سره وملا نفسه بالفخر صرير حذاءه هذا الجديد وهو يسير ، فلا شك أن هذا الصرير سيعلم للجميع عن جلة الحذاء ، وفجأة أحس بالفزع وهو يتبين أنه في هذه اللحظات الدينية الحاسمة يفكر في أمر حذاءه أكثر مما يفكر في أمر دينه . . . انه يعرف أن هذا أمر فظيع . . . وانه ليستغفر الله ويبتهل اليه في حماس ، ولكنه وجد نفسه ، مع هذا ، لا يزال منعما التفكير في حذاءه ذاك الجديد . . »

الحذاء الأحمر

كان هناك فتاة صغيرة تدعى «كارين» لطيفة جدا ورقيقة ، لكنها كانت فقيرة رقيقة الحال ، فكانت تمشي في الصيف دائما عارية القدمين ، وتلبس في الشتاء حذاء خشبيا كبيرا يحمر منه كعباها الصغيران ويحتقان وكانت تسكن في القرية صانعة الأحذية ، فجلست ذات يوم وصنعت من يضع خرق من القماش الأحمر زوجا صغيرا من الأحذية . وكان الحذاء قبيح المنظر لكنه جاء ملائما للفتاة الصغيرة فأعطتها إياه .

وقد أعطيت «كارين» الحذاء الأحمر في اليوم الذي شيعت فيه جنازة أمها ، فلم يكن ذلك يناسب الحداد ، لكنها لم تكن تملك غيره فمشيت به عارية الساقين وراء عربة الموتى .

ومرت في تلك اللحظة مركبة كبيرة عتيقة تحمل سيدة ضخمة كبيرة السن ؛ نظرت الى الفتاة الصغيرة نظرة اشفاق وقالت للقس :
« اعطني الفتاة الصغيرة لأعني بأمرها » .

وظنت «كارين» ان الحذاء الأحمر هو الذي حببها الى السيدة العجوز، لكن السيدة العجوز قالت : ان الحذاء مرعب . وأمرت بحرقه ؛ وألبست كارين الملابس الأنيقة ؛ وعلمت القراءة والاشغال ، وقال لها الناس : انها لطيفة ؛ لكن المرأة قالت لها : « انك لست لطيفة فحسب ، انك جميلة حقا » .

وحدث ذات يوم أن الملكة كانت تزور تلك البلاد ومعها ابنتها الأميرة، فاجتمع الناس ومن بينهم «كارين» أمام القصر ووقفت الأميرة بجوار النافذة في ثوب أبيض لكي يراها الجميع ، ولم تكن تجر ذيلا أو تحمل تاجا ذهبيا ؛ لكنها كانت تلبس حذاء لطيفا أحمر من جلد الماعز الرقيق ، ولكنه ألطف كثيرا من حذاء كارين الصغيرة ، لم يكن في الدنيا بأسرها ما يمكن أن يقارن بهذا الحذاء الأحمر !

وكانت كارين في ذلك الوقت قد بلغت السن التي تسمح لها بتلقي التعميد المقدس ، فأوصى لها بثوب جديد وحذاء جديد ، وقاس صانع الأحذية بالمدينة قدمها الصغيرة . وكانت الأحذية اللطيفة اللامعة معروضة في جوانب الحانوت في خزائن كبيرة من الزجاج ، لكن السيدة العجوز كانت ضعيفة البصر ؛ فلم تجد ما وجدت كارين من سرور وهي تتطلع الى الأحذية . وكان بين الأحذية زوج أحمر يشبه الذي تلبسه الأميرة كل الشبه ، وكان زاهيا ، وقال صانع الأحذية : انه كان قد صنع خصيصا لفتاة من إحدى العائلات الكبيرة لكنه لم يلائمها .

وقالت السيدة العجوز : « انه من جاد لما فانظري كيف يلعب ؟ فصياحت كارين : « أجل انه يلعب بشكل بديع . » ولما كان الحذاء قد ناسبها فقد

اشترته العجوز لها . . لكن السيدة العجوز لم تكن تدرك أنه أحمر ، ولو أدركت ذلك ما اشترته ، لأنها لم تكن تطيق أن تذهب كارين الى التعميد المقدس في حذاء أحمر . ولكن كارين لبسته وذهبت به ، فكان الكل ينظرون اليها ، وخيل لها وهي تمشي ان كل شيء حتى التماثيل القديمة المنحوتة وهي واقفة في أثوابها الفضفاضة السوداء تصوب أنظارها الى حذاءها الاحمر . وكانت كارين لا تفكر في غير هذا الحذاء حين وضع الأسقف يده فوق رأسها ، وحين أخذ يتكلم عن التعميد المقدس وكان الناي يبعث نغماته العميقة الرهيبة وأصوات الاطفال الحلوة تختلط بأصوات أفراد جماعة المنشدين ، لكن كارين كانت لاتزال تفكر في حذاءها الأحمر ، ولا تفكر في شيء غير حذاءها الاحمر .

وفي عصر ذلك اليوم حين اخبرت السيدة العجوز بأن كارين كانت تلبس حذاء أحمر ، اغتاظت غيظا شديدا ، وأبلغت كارين أن الحذاء لا يناسبها مطلقا ، وانه يجب عليها بعد الان - كلما ذهبت الى الكنيسة - أن تلبس حذاء أسود مهما كان قديما .

وفي يوم الاحد التالي نظرت كارين الى حذاءها الاحمر أولا ثم حولت بصرها الى الحذاء الاسود ، ثم نقلته ثانية الى الاحمر ولبسته .

وكان الجو مشمساً بديعاً ، ومضت كارين والسيدة العجوز الى الكنيسة بين حقول القمح في طريق كثير الغبار .

ووقف على باب الكنيسة جندي عجوز وهو متكئ على عكازين ، له لحية طويلة ، لكنها مصبوغة بصبغة حمراء ، وانحنى حتى لامس الارض ، وسأل السيدة العجوز : هل تسمح له بإزالة الغبار عن حذاءها ومدت كارين قدمها الصغيرة أيضاً ، فقال الجندي العجوز : ما أطف حذاء الرقص هذا ! احذري أن يفلت من قدميك حين ترقصين ، ومر بيديه فوق الحذاء .

ونقلت السيدة الجندي العجوز نصف بنس وتوجهت مع كارين الى الكنيسة .

وتأمل كل واحد حذاء كارين الأحمر حتى كأنما صوبت التماثيل المنحوتة أيضاً نظرها اليه ! وعندما ركعت كارين أمام الهيكل كان الحذاء الاحمر لا يزال ماثلاً أمام عينيها ، فكانت تفكر فيه ولا تفكر في غيره ، ونسيت أن تشترك في النشيد وغفلت عن ترديد الصلاة . وأخيراً خرج الناس كلهم ، وركبت السيدة العجوز مركبتها ، وكانت كارين تهم بأن ترفع قدمها حين صاح الجندي العجوز الواقف بالباب يقول : انظروا ما أطف حذاء الرقص هذا !

وما ان فرغ الرجل من كلامه حتى أحسست كارين أنه يجب أن ترقص بضئع خطوات ، وما ان بدأت حتى اندفعت قدماها تتحرك كأنها للحداء سلطان عليهما ، ورقصت حول المقبرة ، ولم تستطع أن

تكف عن الرقص فاضطر الحوذى الى الجرى وراءها وامسك بها
ورفعها الى المركبة . لكن قدميها كانتا لاتزالان ترقصان حتى انها ضربت
بهما السيدة العجوز ضربة قاسية ، واخيرا خلع الحذاء فسكنت القدمان
عن الحركة .

ثم وضع الحذاء فى خزانة ، ولكن كارين لم تستطع مقاومة نفسها
فى الذهاب لرؤيته حيناً بعد آخر .

ومرضت السيدة العجوز ولازمت فراشها . وقال الطبيب : انها
لمن تعيش طويلاً ، وكانت بحاجة الى من يعنى بتمريضها ، ومن ذا الذى
يمرضها ويقوم على خدمتها الدائمة غير كارين ؟

ولكن حفلة رقص عظيمة كانت ستقام فى المدينة ، وكانت كارين
من المدعوات ، فنظرت الى السيدة العجوز التى كانت تحتضر ، ونظرت
الى الحذاء الاحمر فلبسته ثم ذهبت الى المرقص واخذت ترقص .

لكنها حين ارادت ان تتحرك نحو اليمين حملها الحذاء يساراً ..
وحين اخذت ترقص فى القاعة الى الامام ارقصها الحذاء الى الخلف
وانزلها على السلم رقصاً ، ودفعها الى الشوارع ، وخرج بها من ابواب
المدينة ، ومضت ترقص ولم تستطع الكف عن الرقص حتى بلغت الغابة
المظلمة .

ورأت فجأة ضوءاً بين الاشجار فظنت انه وجه القمر يسطع من
خلال ضباب الليل بنور احمر ، ولكنه لم يكن وجه القمر بل كان وجه
الجندي العجوز صاحب اللحية الشقراء ، كان يجلس هناك ويومئ
برأسه ويردد :

- انظروا ماالطف هذا من حذاء للرقص .

فانزعجت انزعاجاً شديداً ، وحاولت ان تلقى عنها حذاءها الاحمر
ولكنها لم تستطع فكه ، بل انها مزقت جوربها ولم تستطع التخلص من
حذاءها ، وكأنه قد ثبت على قدميها . ومضت ترقص على الرغم منها
فى الحقل والمرعى ، فى المطر وفى أشعة الشمس ، بالليل والنهار .

نعم كانت ترقص بالليل ! وكان الرقص فيه مروعا ! فرقصت فى
المقبرة الموحشة ، لكن الاموات هناك لم يرقصوا بل كانوا يستريحون
وكانت تتمنى لو جلست فوق قبر الرجل الفقير ، لكنها لم يقدر لها ان
تحظى بالراحة لحظة واحدة .

ومرت وهى ترقص بباب الكنيسة المفتوح فراءت هناك (ملاكا) فى
ثياب بيضاء له جناحان يصلان من كتفيه الى الارض ، وكانت على وجهه
أمارات الجد والقسوة ، وفى يده سيف عريض يلمع .

قال : سترقصين ، فارقصي فى حذاءك الاحمر حتى يصيبك
الشحوب ، وتبرد أعضاؤك .. وينكمش جلدك .. ويعتقلص جسدك

الهيكل العظمى ! سوف ترقصين من باب الى باب ، وحيث أطفال مغرورون شتدقين الباب ليستمعوك ويخافوا منك ، سترقصين ، فامضى فى رقصك .

فصاحت كاترين : الرحمة .. لكنها لم تسمع جواب (الملاك) لان الحذاء حملها من الباب الى الحقول ثم الى الطرق ، وداخل الأزقة .

وفى ذات صباح مرت بباب وهى ترقص وكانت تعرفه جيدا ، فسمعت الأناشيد فى داخله ، وخرج نعيش تعلوه الأزهار .

فأدركت كارين أن السيدة العجوز الطيبة قد ماتت ، فأحسست انها أصبحت منبوذة من الناس أجمعين ، ملعونة من (ملاك) الرحمة .

واستمرت ترقص حتى فى الليل المظلم ، وحملها الحذاء فوق الأشواك حتى تمزقت أطرافها وسالت منها الدماء ، وذهبت ترقص حتى وصلت الى منزل منعزل صغير ، وكانت تعلم أنه مسكن الجلاد ، فنقرته بأصابعها فوق الزجاج ، وهى تصيح : « اخرج الى ! اخرج الى ! فأننى لأستطيع الدخول ، اننى أرقص .

فأجابها الجلاد : انك لاتعرفين من أنا ، انى أقطع رهوس الأشرار وفأسى حادة جدا وقاطعة .

قالت كارين : لاتقطع رأسى ! لانى حينئذ لأستطيع العيش والتكفير عن خطيئتى ، بل أقطع قدمى وفيهما الحذاء الأحمر .

واعترفت له بكل خطيئتها ، فقطع الجلاد قدميها وفيهما الحذاء الأحمر ، وحتى بعد هذا ظل الحذاء يرقص بالقدمين الصغيرتين فوق الحقول حتى وصل الى وسط الغابات .

وصنع لها الجلاد قدمين من الخشب وقطع بعض الأغصان لتكون عكازين لها ، وقبلت اليد التى أمسكت بالفأس ، ومضت فى طريقها فوق الأرض الوعرة .

وقالت كارين لنفسها : الآن قد عانيت ما فيه الكفاية بسبب الحذاء الأحمر ، لسوف أذهب الى الكنيسة ليرانى الناس مرة أخرى .

ومضت الى باب الكنيسة بأسرع ماتستطيع ، لكنها حين اقتربت منه وجلت الحذاء الأحمر يرقص أمامها ، فانزعجت وولت هاربة .

وعانت طيلة هذا الاسبوع ألما بليغا ، وبكت بكاء مرا ، فلما كان يوم الأحد قالت لنفسها : أظن أننى عانيت هذه المرة كثيرا ، ولعل لاأقل طيبة عن الكثيرين ممن يقفون رافعى الرأس فى الكنيسة .

واستجمعت شجاعتها ومضت الى الكنيسة ، لكنها لم تكد تخطو فوق عتبة المقبرة حتى رأت الحذاء الأحمر يرقص ثانية أمامها ، فعادت مذعورة وأخذت تندب حظها وتندم على خطئها أكثر من أى وقت مضى .

فلهبت عندئذ الى بيت راعى الكنيسة ، ورجته أن يكلفها عملا

ما ، ووعدته أن تعمل فيه بهمة ، وأن تفعل كل ماتستطيع . قالت :
ولست راغبة في أجر ، بل كل ماأطلبه سقف يؤويني ، ومسكن مع
أناس طيبين ، وأشفقت عليها زوج الراعي ، وأدخلتها في خدمتها ..
فحفظت كارين جميلها وجلت في عملها .

وكانت تجلس كل مساء صامئة تصغي الى الراعي ، وهو يقرأ في
الكتاب المقدس بصوت عال ، وأحبها الاطفال جميعا لكنها حين كانت
تسمعهم يتحدثون عن الثياب والأناقة ، وعن جمالهم الذي يشبه جمال
الملكة كانت تهز رأسها في أسى وحسرة .

وجاء يوم الأحد من جديد ، وذهب آل بيت الراعي جميعا الى
الكنيسة ، وسألوها : أليست ذاهبة أيضا ؟ فتنهدت ونظرت والدموع
في عينيها الى عكازيها .

وعندما انصرف الجميع ذهبت الى غرفتها الصغيرة - وكانت
لا تتسع الا لسرير ومقعد فقط - وجلست هناك ، وبينما هي كذلك
حملت الريح الى غرفتها في الكنيسة أنغام الناي ، فرفعت رأسها الى
السما وودعت الله ودموعها تجري على خديها قائلة : الهى ساعدنى .

ثم سطع نور الشمس سطوعا يخطف الأبصار، فرأت عجبا ؟ رأت
أمامها (الملاك) واقفا بثوبه الابيض وكان لا يختلف عن (الملاك) الذي رأت في
تلك الليلة الكثيبة ، لكن يده لم تكن تهز سيفا كالذى كانت تهزه في
المرّة السابقة ، بل كانت تحمل غصنا جميلا أخضر مليئا بالورد .

ولمس (الملاك) السقف بهذا الفصن ، فارتفع نحو السماء وظهر
في البقعة التي لمسها نجم ذهبي لامع ، ولمس الجدران فاتسعت الغرفة
ورأت كارين الناي وسمعت أصواتا كثيرة تنشد .

لقد أتت الكنيسة الى الفتاة المسكينة في غرفتها الضيقة ، أو لعل
الغرفة قد اتسعت حتى أصبحت هي الكنيسة ، وجلست الفتاة مع بقية
آل بيت الراعي . وعندما انتهت الأناشيد نظروا اليها وهزوا رؤوسهم
قائلين : لقد أحسنت صنعا بقدمك ياكارين .

فقالت : هذه مغفرة من الله .

وعزف الناي مرة أخرى ، وامتزجت أصوات الاطفال بأنفسامه
امتزاجا حلوا عذبا ، وتدفقت أشعة الشمس الساطعة الدافئة من النوافذ
على مقعد كارين ، وامتلا قلبها نورا وغبطة وسلاما ، وطارت روحها على
شعاع من أشعة الشمس الى الله في السماء حيث لم تكن في انتظارها
نظرة عتاب واحدة ، أو مجرد كلمة عن الحذاء الاحمر .

الشريحة الثانية

.. وذهب في عام ١٨٤٥ الى برلين ، حيث كانت « جيني لنس »
تغنى في دارها الملية للاوبرا ، وهو يرجو أن يقضى معها عيد راس
السنة الميلادية ، ولكنها لم ترسل اليه تستدعيه برغم علمها بوصوله .
فجلس وحيدا .. يائسا في غرفته بالفندق . وكتب في مذكراته يقول :
اننى لاأدرى ماذا يدور بذهنها ، انها لا تكاد تشعر بى برغم انى جئت
الى برلين من أجلها .. اننا الآن في ليلة عيد الميلاد .. فما أسعد البيت
الذى يجلس فيه الزوج بجانب المدفأة ، وشجرة عيد الميلاد مزينة ..
والزوجة واقفة وبين ذراعيها اصغر ابنائها .. انه يمد ذراعيه الى الاضواء
وان بقية الاولاد فرحون متهللون .

ولكن .. لم يكن ثمة فائدة من الاستغراق فى الاوهام والاحلام ،
فعندما ارسلت اخيرا تستدعيه وتقضى معه ليلة عيد الميلاد ، ادرك انه
ليس ثمة فائدة ، فقد كانت تلك اول مرة ينفردان فيها معا ، اذ لم تكن
وصيفة « جيني » معها .. فاضاعت شجرة عيد الميلاد لاندرس وملاط
بغنائها العلب وصوتها الصافى روحه بالسعادة والسلام ، ولكنها
فى الوقت نفسه ابانت له بوضوح انها لا تستطيع ان تمنحه اكثر
من هذا .

الكروان

امبراطور الصين - كما تعلمون جيدا - صينى ، وكل المحيطين به صينيون أيضا ، وقد وقع ما ساقصه عليكم منذ سنوات عدة .

كان قصر الامبراطور اعظم قصر فى الدنيا ، وكان كله مصنوعا من الخزف البديع الغالى الثمن ، ولكنه كان فى الوقت نفسه هشاً . بمجرد لمسه يتحطم من اوله الى آخره . وكان فى القصر مجموعة من الازهار رائعة المنظر ، وقد ركب فى أجمل واحدة من تلك الازهار ثلاثة أجراس صغيرة من الفضة ، وكان كل شخص يمر عليها ويسمع الرنين يضطر الى الوقوف والالتفات الى جمالها .

حقا لقد كان كل شىء فى حديقة الامبراطور مرتباً ترتيباً حسناً . وكانت الحديقة واسعة جداً لدرجة أن البستاني نفسه لم يكن يعرف آخرها . . . وكانت فى نهاية الحديقة غابة جميلة ذات أشجار باسقة تشرف على بحر أزرق عميق ، تجرى فيه السفن الى جوار الأغصان . وكان يقيم بين الأغصان كروان يغرد تغريدا حلوا يعجب حتى صياد السمك الفقير الذى كان برغم شغله الكثير يقف ساكناً ، ويصغى اليه ، وحين يأتى بالليل ليلقى بشباكه ، كان يقول : ما أعذب هذا الصوت ! . ثم يشغله عمله فينسى الطائر ، حتى اذا عاد الصياد فى الليلة التالية وعاد الكروان الى التغريد كرر قوله : ما أعذب هذا الصوت ! .

وكان السياح يأتون الى مدينة الامبراطور من جميع أنحاء الدنيا فيعجبون بالمدينة وبالقصر والحديقة ، ولكنهم اذا سمعوا الكروان قالوا جميعاً : هذا أحسن شىء هنا . وكانوا اذا عادوا الى أوطانهم لا يكفون عن الحديث عن الكروان ، ويؤلف العلماء منهم الكتب عن المدينة والقصر والحديقة ، ولا ينسون الكتابة عن الكروان ، فقد كان فى نظرهم يفوق كل شىء آخر . أما الشعراء فكانوا يكتبون أجمل القصائد وأروعها عن الكروان . وكانت هذه الكتب تطوف حول العالم . فوصل أحدها أخيراً الى يد الامبراطور ، وكان جالسا فوق كرسيه الذهبى ، فأخذ يقرأ فى الكتاب ويقرأ ، ويهز رأسه من حين الى آخر ، فقد أعجبه وصف الكتاب البديع للمدينة والقصر والحديقة . لكن الكروان هو خير ما هنالك جميعاً هذا ما قرأه الملك بعد ذلك فى الكتاب ، فأخذ يسأل : وما هذا الكروان ؟ أى كروان هذا ؟ اننى لأعرف كروانا هنا ! أيمكن أن يكون هناك طائر كهذا فى امبراطوريتى . . بل فى حديقتى دون أن أسمع بوجوده . . . الحق اننا نتعلم الكثير من الكتب .

ونادى ياوره على الفور ، وكان رجلا مهيبا عظيم القدر لا يجروا أحد غيره على مخاطبة الامبراطور .

قال له الامبراطور : يقال ان هنا طائرا عجيبا جدا يسمى الكروان ويقال ان تغريده أحلى من أى شئ آخر فى مملكتى ، فلماذا لم يحدثنى أحد عنه مطلقا ؟

فاجاب الياور : لم أسمع يا سيدى بهذا الطائر قط من قبل ، ولم يأت به أحد قط الى البلاط .

قال الامبراطور : أريد أن يأتى ويفرد أمامى هذا المساء ، هل من المعقول أن تعلم الدنيا كلها ما عندى ، وأنا لا أعلمه ؟

فرد الياور : اننى لم أسمع به ياسيدى ، ولكننى سأبحث عنه حتى أهتدى اليه .

ولكن أين يجده ؟ فقد أخذ الياور يبحث عنه فى كل مكان ، كان يصعد سسلما ويهبط آخر ، ويخرج من ردهة الى ممر دون أن يعثر للكروان على أثر . وعاد الى الامبراطور وقال له : لأبد أن يكون موضوع هذا الطائر من خيال الكتاب والشعراء ، وأرجو ألا يصدق جلاله الامبراطور كما ما يكتب فى الكتب ، لأن ما بها مجرد أوهام .

قال الامبراطور : ولكن الكتاب الذى قرأت فيه عن الكروان قد بحث به الى امبراطور اليابان العظيم ، ذو الجاه والسلطان ، ولا يمكن أن يكون ما به كذب وأوهام . أريد أن أسمع البلبل ، ويجب أن يكون هنا فى مساء اليوم ، واذا لم يأت فسأصدر أوامرى بجلد رجال العاشية جميعا بعد العشاء .

فانصرف الياور من أمام الامبراطور وقد تملكته الحيرة وأخذ ينزع القاعات والردهات ونصف رجال العاشية يجرون وراءه ، فليس منهم من يريد أن يجلد ، وكانوا يسألون كل من يقابلونه عن هذا الكروان العجيب الذى تحدثت الدنيا عنه دون أن يعلم أهل البلاط من أمره شيئا .

وأخيرا عثروا على فتاة صغيرة مسكينة فى المطبخ فقالت لهم : أجل الكروان ! اننى أعرفه معرفة جيدة . فما أحلى غناؤه العذب ! اننى فى كل مساء أحمل الطعام المتبقى من المائدة الى أمى المريضة المسكينة التى تقيم على ساحل البحر ، وفى أثناء عودتى أمكث فى الغابة قليلا وأستريح ، فأسمع الكروان يفرد تغريده يجعل الدمع ينساب غزيرا من عيني .

فقال الياور : اسمعى أيتها الفتاة الصغيرة .. اننى سأحصل لك على وظيفة مضمونة فى المطبخ ، وبهذا سوف ترين الامبراطور وهو يتعشى ، فقط عليك أن تخبرينى بمكان الكروان وتقودينى اليه . انهم ينتظرونه فى البلاط هذا المساء .



.. فرحت الطفلة بما قاله الياور واصطحبته الى الغابة وكان معهما
نصف الحاشية ..

فرحت الطفلة بما قاله الياور ، واصطحبته الى الغابة حيث اعتاد
الكروان أن يغنى ، وكان معهما نصف الحاشية . وبينما الجميع فى
طريقهم أخذت بقرة تخور ، فقال غلمان البلاط : الآن قد وقعنا عليه
ما أعجب هذا الصوت الذى يظهر من هذا الحيوان الصغير ! حقا لقد
سمعناه من قبل فى مكان ما .

ف قالت خادِم المطبخ الصغيرة : أن ماتسمعونه ليس الا خوار بقرة
ولا نزال بعيدين عن الكروان .

ثم سمعوا نقيق الضفادع فى البركة ، فقال واعظ البلاط : هذا
مدهش ! فالآن أسمع ، ان له صوتا كرنين الأجراس الصغيرة .

ف قالت خادِم المطبخ الصغيرة : كلا ان هذه ضفادع اما الكروان
فاننا سنسمعه قريبا .

وأخذ الكروان يغنى فصاحت البنت الصغيرة : هاهوذا ! انصتوا انه
واقف على أحد الأغصان هناك .

وأشارت الى طائر أشهب صغير بين الأغصان .

فقال الياور : هل يمكن هذا ؟ ما كنت أظن ذلك . فما أبسط
منظره !

ونادت خادِم المطبخ : أيها الكروان الصغير : ان امبراطورنا الكريم
يريد أن تغنى له قليلا .

فأجاب الكروان : بكل سرور ، وغرد تغريدا سحر الجميع .

فقال الياور: ان لصوته رنين كورنين أجراس مصنوعة من الزجاج
انظروا الى حنجرتة الصغيرة كيف تتحرك ! اليس غريبا اننا لم نسمع
شيئا كهذا من قبل ؟

وسال الكروان : هل يريدنى الامبراطور ان اغنى مرة أخرى ؟
فقد كان يظن أن الامبراطور من بين الواقفين .

فقال الياور : ياأروع كروان فى الوجود ! ان لى الشرف بأن
أدعوك الى حفلة فى البلاط تقام هذا المساء ، ليفتتن فيها مولاي الامبراطور
بصوتك العذب .

قال الكروان : ان صوتى يحلو وقعه بين الأشجار الخضراء ولكنه
سار معهم فى النهاية عن طيب خاطر ، وخاصة حينما عرف أن الامبراطور
مشتاق الى سماع صوته .

وكان القصر قد لبس ازهى حلة ، فكانت حيطانه وأرضه
— وكلها مصنوعة من الخزف — تلمع فى ضوء ألف مصباح من الذهب
الخالص . وكانت أجمل الازهار والاجراس ذات الرنين الحلو موضوعة
فى الممرات . وفى وسط القاعة الكبرى ، حيث جلس الامبراطور اقيم
مقعد صغير فاخر فى مكان مرتفع ليجلس فوقه الكروان ، وكانت العاشية
كلها حاضرة وأذن لخدام المطبخ الصغيرة أن تقف خلف الباب ، فقد
كان ابتهاجه به عظيما ، فأمر بوضع حلية ذهبية حول عنقه ، ولكن
ير الياور بوعد له ومنحت لقب «فتاة المطبخ» وكان الجميع يرتدون
أفخر الثياب ، واتجهت كل الانظار نحو الطائر الصغير الذى أشار اليه
الامبراطور ليبدأ الغناء .

وغنى الكروان غناء انسابت له الدموع من عيني الامبراطورة
وبللت خديها ، وتأثرت قلوب جميع الحاضرين ، أما الامبراطور فقد
الكروان شكر الامبراطور وقال : انه نال أكبر الجزاء ، قال : لقد
رأيت الدموع فى عيني مولاي الامبراطور ، وهذا خير جزاء أناله . لان
دموع الامبراطور دموع غالية ، ثم عاد الى الغناء بصوته العذب .

حقا لقد كان نجاح الكروان عظيما ، وقد تقرر ان يبقى فى البلاط
وان يكون له قفص خاص به ، كما تقرر له اجازة يطير فيها خارج
قفصه مرتين بالنهار ومرة بالليل . وقام على خدمته اثنا عشر خادما ،
يمسكون بشريط حريرى مربوط حول قدميه ، فكانت قبضاتهم محكمة
على هذا الشريط . ولكن كل هذا لم يسعد الكروان بأية حال .

واخذت المدينة تتحدث عن الطائر العجيب ، واخذ الآباء يطلقون على
أبنائهم الجدد اسم «كروان» حتى لقد سمي بهذا الاسم أحد عشر طفلا
فى المدينة ، ولكن لم يكن لأحد من هؤلاء الاطفال مثل أنغام الطائر العذبة
الشجية .

وفى ذات يوم وصلت باسم الامبراطور لفافة كبيرة مكتوب عليها
«كروان» فقال الامبراطور : هذا كتاب جديد آخر عن طائرنا الشهير
لكنه لم يكن كتابا ، بل كان آلة صغيرة فى صندوق على شكل كروان

صناعي يشبه الكروان الحى الى حد كبير ، ولكنه كان مرصعا كله بالماس والياقوت الأحمر والأزرق فاذا أدير لولب هذا الكروان الآلى أمكنه أن يغنى لنا واحدا من الحان الكروان الحى ، وكان ذيله البراق يعلو فى أثناء ذلك ويهبط .

وقال الجميع : هذا مذهى ! الآن يجب أن يغنى معا ، وسيكون لنا منهما أغنية ينشدها اثنان ، وغنى الطائران معا ، ولكن الكروان الحقيقى كان يغنى بأسلوبه الخاص ، أما الكروان الآلى فكان يخرج نغماته اذا دارت العجلات بداخله ، فرأى البعض أن يغنى الكروان الصناعى وحده ، فغنى ونجح مثل الكروان الحقيقى ، هذا بالإضافة الى أنه كان أجمل منه منظرا ، وأن ريشه كان يتلألأ كالجواهر .

وقد غنى أغنية وكررها ثلاثا وثلاثين مرة دون أن يصيبه التعب وتمنى الجميع أن يسمعه مرة أخرى . ولكن الامبراطور اشتاق الى سماع الكروان الحقيقى ، وعندما ذهبوا لاحضاره لم يجدوه ، ولم يكن أحد قد لاحظ أنه طار من النافذة المفتوحة الى غابته الخضراء ، فحنق عليه الامبراطور وأمر بنفيه من البلاد .

وحل الطائر الصناعى محله على وسادة من حرير تلاصق فراشه الامبراطور وأحيط بكل الهدايا التى تلقاها من ذهب وحجارة كريمة . وانعم عليه بلقب : مغنى الفخامة الامبراطورية السامية ، واستمرت هذه الحال سنة كاملة حفظ فيها الامبراطور والبلاط وأهل الصين جميعا كل مقطع من أغنية الكروان الصناعى . وكان هذا هو السبب فى أنهم استمتعوا بالأغنية الى حد كبير ، وأصبحوا قادرين على مصاحبته فى الغناء وصار الاولاد فى الشوارع يرددون الأغنية حتى الامبراطور نفسه لم يكن يكف عن ترديدها .

وذات مساء حين كان الطائر فى أوج غنائه ، والامبراطور يصغى اليه فى استمتاع وهو مضطجع فى فراشه ، سمع فجأة صوت فى داخل الطائر ، ثم تحرك نقي فى بطنه وطارَت العجلات هنا وهناك وانقطعت الموسيقى . فقفز الامبراطور من سريره بسرعة وارسل يطلُب كبير الاطباء . . . ولكن ماذا يستطيعه كبير الاطباء ؟ ثم استدعى صانع الساعات الذى بذل جهدا كبيرا فى اصلاح الطائر . وقال صانع الساعات بعد أن انتهى من عمله : لكن يجب اعفاء الطائر من الغناء الا مرة واحدة فى العام لان « التروس » قد تأكلت تقريبا ، ومن المستحيل تجديدها لتعود الموسيقى على ماكانت عليه من الجمال والاتقان .

ومضت على هذا الحادث خمس سنوات مرض فيها الامبراطور واشرف على الموت . وحزن شسعه عليه حزنا شديدا ، وأخذ الناس يعدون على القصر لتحية امبراطورهم تحية الوداع . وكان الامبراطور راقدا فوق سريره الفاخر وقد تصلب جسده واصفر وجهه ، وكانت ستائر القטיפه الطويلة مسدلة على السرير وقد تددت اهدابها الذهبية الثقيلة . وكانت فوق السرير نافذة مفتوحة يرسل منها القمر أشعته على الامبراطور والعصفور الصناعى .



... وفتح الامبراطور عينيه فرأى ملك الموت الى جانبه وقد وضع
على رأسه التاج الامبراطوري ..

وكان الامبراطور المسكين يكاد يختنق ، فقد خيل اليه ان شيئا
ثقيلاً يطبق على صدره ، وفتح عينيه فرأى ملك الموت الى جانبه وقد
وضع على رأسه تاج الامبراطور وأمسك باحدى يديه «السيف المقدس
الذهبي» ، وبالأخرى العلم الامبراطوري الفخم . وشاهد من فتحات
«الستائر السميكة رموسا غريبة تتطلع اليه ، بعضها يبدو قبيحا جدا ،
وبعض الآخر يبدو لطيفاً باسماء . فعرف الامبراطور ان الرموس
«القبيحة العابسة تمثل ميثاته التي ارتكبها في حياته ، وأن الرموس

الراضية الباسمة تمثل حسنة ، وقد جاءت كلها مع موكب الموت
«الذي أصبح يحيط به ، وخيل اليه أنه يسمع سيئاته تصرخ فيه مؤنية :
«ألا تذكرني ؟- ألم تفعل كذا وكذا ؟» ففزع الامبراطور مما رأى وسمع ،
واستبد به الهلع والرعب فأخذ يصيح : « ادركوني بالموسيقا ، دقوا على
الطبل الصينى الكبير ولا تتركوني أسمع مايقولون ! غن لى أيها الطائر
الصناعى العزيز ! غن لى أرجوك ! اننى وهبت لك الذهب والأحجار
الكريمة ، وأعطيتك كل ما هو غال وثمان .. أرجوك أن تغنى لى !» ولكن
الطائر ظل صامتا . فلم يكن هناك أحد يدير لولبه ولم يكن الامبراطور
يقوى على ذلك ، ولذا لم يستطع الطائر الغناء . ومضى الموت يحملق فى
وجه الامبراطور بعينه الكبيرتين القبيحتين . وأطبق الصمت على الحجرة
وكان صمتا مخيفا مرعبا .

وفجأة سمع الامبراطور لحنا عذبا صادرا من النافذة . فقد كان الكروان
الحى الصغير واقفا على غصن بالخارج ، وقد جاء يغرد للامبراطور ويدخل
على قلبه العزاء والأمل ، بعد أن علم بمرضه الشديد . وكان كلما استمر
فى الغناء أخذت الاشباح التى تحيط بسرير الامبراطور تختفى الواحدة
تلو الأخرى . وسرى الدم فى عروق الامبراطور ، ودبت فيه الحياة من
جديد . أما (ملاك) الموت فقد أخذ يصغى فى رضا وهو يقول : « استمر
فى غنائك أيها الكروان الصغير ، استمر فى غنائك !» فقال الكروان :
« وهل تمنحنى السيف المقوس الذهبى ، وتعطينى العلم العظيم وتاج
الامبراطور ؟ » .

فرد (ملاك) الموت : «هذه الكنوز جميعها لك ثمنا للأغنية» فاستمر
الكروان فى الغناء . أخذ يغنى عن المقبرة الهادئة حيث يزهر الورد
وتنتشر رائحته الزكية ، وحيث تبلل الدموع المسكوبة على الراحلين
العشب الطرى . فاهتز (ملاك) الموت شوقا الى حديقته ، وانطلق من
النافذة طيف أبيض بارد .

حينئذ قال الامبراطور : «شكرا شكرا ، أيها الطائر السماوى الصغير
انى أعرفك جيدا » لقد طردتك من مملكتى فطردت أنت بغنائك هذه
«الوجوه الكثيرة عن سريري ، وأبعدت الموت عن قلبى ، فكيف أكافئك ؟»
فقال الكروان : « لقد نلت جزائى حين شهدت الدمع يترقرق فى
عينيك ، كما شهدت عندما غنيتك لأول مرة ، اننى لن أنسى تلك الدموع
أبدا فهي كالجواهر التى تملأ قلب المغنى المجهول بالبهجة والسعادة .
فلتتم الآن يامولاي ، وانهض بعد ذلك نشيطا معافى ، ولسوف أغنى لك
حتى تستسلم الى النوم الهنىء » .

وأخذ الكروان يغنى حتى راح الامبراطور فى سبات عميق لذيد
واستيقظ فى صباح اليوم التالى سليما معافى . ولم يكن أحدا من خدمه
قد جاء لانهم جميعا حسبوه قد مات ، لكن الكروان كان لا يزال الى جواره
يغنى له أعذب الألحان .

والتفت الامبراطور الى الكروان وقال له : « سوف تبقى دائما معى
لتغنى لى كما يحلو لك . ولسوف أحطم هذا الطائر الصناعى اللعين » .

فأجابه الكروان : لا تفعل ذلك ، فلقد بذل مائى طاقته ، واعتن به-
أما أنا فلا بقاء لى فى قصرك ، دعنى وشأنى ، انى لسوف آتى كلما
راق لى ذلك ، وأقف على الأغصان بجوار النافذة وأغنى لك حتى تصبح
سعيدا مرتاح البال . سوف أغنى للجميع . . للبؤساء والسعداء ،
سوف أغنى للخير والشر اللذين يكمنسان معا فى قصرك . ان المغنى
الصغير يطير الى كوخ السماك ، ومزرعة الفلاح ، الى جميع من هم بعيدون
عنك وعن بلاطك . ان قلبك أحب الى من تاجك . سوف آتى وأغنى على
شرط أن تعدنى بشىء واحد .

فقال الامبراطور فى لهفة : « بل بكل شىء ! »

قال الكروان : « اننى أسألك شيئا واحدا . . لا تخبر أحدا بأن لك
طائرا صغيرا ينبئك بكل شىء . اذا فعلت ذلك فسيكون كل شىء على مايرام . »
قال الكروان ذلك وانطلق طائرا الى الفضاء الفسيح وجاء الخدم
ليروا امبراطورهم الميت ، ولكن الدهشة عقدت ألسنتهم حينما رأوه
واقفا وسط الغرفة يقول لهم : « صباح الخير ! »



..... وجاء الخدم ليروا امبراطورهم الميت ، ولكن الدهشة عقدت
ألسنتهم حينما رأوه واقفا وسط الغرفة يقول لهم : « صباح الخير ! »

الشريحة الثالثة

« ... وكانت امه تنظر اليه احيانا وتقول له : انه يعيش في ترف
وانه اسعد حالا منها يوم كانت في مثل سنه .. فقد كانت - وهي
طفلة - تخرج مرغمة ، وكثيرا ماغلبها الشعور بالخجل على امرها ..
فتجلس طوال اليوم تحت القنطرة ، تتحب ولا تجرؤ على العودة الى
البيت دون القليل من المال ... »

« ... وفي اثناء اقامته في بيوت الاعيان ، لم ينسه منظر
الارستقراطيين الكسالى ، الاثرياء ، الفارغين - لم ينسه ذلك - اولئك
القابعين في الجانب الآخر من البشرية : الفقراء ، البؤساء ، المعلمين ،
الذين يبيتون على الطوى اياما ويعلمون بقطعة فحم تدرا عنهم قسوة الشتاء »

بائعة الثقاب الصغيرة



البرد قارس ، والثلج يتساقط سريعا ،
والليل أوشك أن يرخي سدوله على حين أن
فتاة صغيرة مسكينة عارية الرأس ، حافية
القدمين لاتزال تجول في الطرقات .

وكانت تلبس خفين حين خرجت من
بيتها ، لكن هذين الخفين كانا أكبر من
قدميها - فهما لامها - فانفلتا من قدميها
حينما كانت تجرى بسرعة في عرض
الطريق لتتفادي من مركبتين مقلبتين .
ومن لهفتها ضاع أحد الخفين ولم تعثر له
على أثر ، واختطف الخف الآخر غلام
صغير وانطلق يعدو به .

وسارت الفتاة حافية ، فاحتقنت قدميها
من البرد ، وكانت تحمل حزمة صغيرة من
أعواد الثقاب في يدها ، وحزما أخرى في
ثوبها الممزق ولم تكن قد باعت في يومها
حزمة واحدة ولم يعطها أحد بنسا واحدا .
وأخذت تجر نفسها جرا وترتعش من البرد
والجوع .. مسكينة أيتها الطفلة الصغيرة .

وكان الثلج يتساقط فوق
شعرها الاشقر الطويل المجدول
فوق كتفيها في حلقات لطيفة ،
ولكنها لم تكن تفكر في جمالها
أو في البرد القارس ، فقد
كانت الأنوار تنبعث في كل
نافذة ، ورائحة الاوز المشوى
تنتشر من منازل عدة لان
تلك الليلة كانت ليلة رأس
السنة .. هنا ماكانت تفكر
فيه .



وجلست الفتاة القرفصاء في أحد الأركان ، ووضعت قدميها
لصغيرتين من تحتها تريد أن تدفئهما ، ولكن لم تستطع ، فقد كان البرد
يتسلل الى جميع اطرافها من الثقوب التي تمسلا ثوبها ، ولم تجرؤ على

العودة الى البيت ، فانها لم تبع ثقابا ، ولم تحظ ببئس واحد ، وقد يضربها أبوها لو عادت . هذا الى أن مسكنها ربما لا يقل برذا عن الطريق لانه كان فى غرفة السطح ، ومع أن الشقوق الكثيرة المنتشرة فى سقفه قد سد أكبرها بالقش والخرق ، فإن الريح والتلج يجدان طريقهما بسهولة الى الداخل ، - كأنهما يسعيان الى الدفء أيضا .

كانت يداها تبسودان كما لو أنهما لا حياة فيهما ، وقد يدفئهما عود واحد من الثقاب لو تجرات فأشعلته وسحبت عودا وقدحت به فى الجدار . . . يا الله ! ياله من لهيب لامع دافئ ! ووضعت يديها فوق اللهب الصغير ، فبدأ لها شمعة سحرية ، وخيل اليها أنها جالسة بجوار موقد حديدى كبير محلى بزخرف من النحاس ، وبداخله نار تنز وتناجج . . . بوملت الطفلة قدميها لتدفئهما ، ولكن والأسف ! لقد انطفتت الشمعة الواهنة بعد لحظة ، واختفى الموقد الذى كان يملأ عالمها ، وعادت الى البرد والحرمان ، وعود محترق بين أصابعها الدقيقة .

وقدحت عودا آخر فى الجدار ، فأضاء والتهب ، وكان الضوء المنبعث من العود يكشف عن الجدار ، فاستطاعت الفتاة أن ترى مايجرى فى الحجرة وراءه . رأت مائدة مغطاة بقماش ناصع البياض وفوقها بعض صحاف من الخزف اللامع .

وكانت أوزة مشوية ، ومحشوة بالتفاح والبرقوق المجفف فى أطراف المائدة ، يتصاعد منها الدخان ، وكان أجمل من هذا بمرامع العين أن الاوزة قفزت من الطبق ، والسكين والشوكة لا تزالان فى صدرها ، وأخذت تمشى فوق الأرض متجهة الى الفتاة المسكينة .

وانطفا العود الثانى ، وانطفتت من ثم كل الخيالات التى عاشت فيها ليضع لحظات ، وإذا بها تجد نفسها قابعة الى جوار الجدار السميك البارد . وأشعلت عود ثقاب ثالثا ، واندلع اللهب مرة أخرى فاذا بها تجلس تحت شجرة من شجر عيد الميلاد من أجمل ما رأت فى حياتها ، بل أنها لاكبر وأروع من التى شهدت خلال الزجاج فى بيت التاجر الغنى ليلة عيد الميلاد الماضى . وكانت مئات من الشموع تضى الأغصان الخضراء ، وعرائس ملونة صغيرة كالتى شهدت فى معارض الحيوانات تطل عليها من الشجرة .

فمدت الفتاة يديها نحوها فرحة ، ولكنها لم تكد تفعل حتى انطفا عود الثقاب ، ومع ذلك فقد كانت شموع عيد الميلاد لا تزال تشتعل ويرتفع لهيبها ، وقد شهدت تتلأأ كنجوم السماء ، ورات احداها تسقط وكان الضوء المنبعث من ورائه يشبه ذنبا ناريا طويلا .

وقالت الفتاة الصغيرة فى صمت ضعيف : « الآن يحتضر بعض الناس ، وكانت جدتها العجوز قد أخبرتها بأنه كلما سقط نجم صعدت روح الى بارئها . وجدتها العجوز كانت هى الشخص الوحيد الذى حنا عليها من بين الناس أجمعين . وهى الآن فى جنات الخلد . وحكت الفتاة للجدار عودا آخر من الثقاب فأشتعل ، وظهرت للفتاة الجدة العزيزة تنفسها وسط النور المنبعث من العود ، وهى على ماعرفت به من لطف

وايناس ، لكنها كانت هذه المرة مشرقة سعيدة أكثر مما بدت في حياتها
الاولى .

وصاحت الطفلة الصغيرة : أواه يا جدتي ! خذيني معك ، فاني أعلم
أنك ستتركيني بمجرد ما ينطفئ العود . ستختفين كما اختفت نار
الموقد الدافئة ، ووليمة رأس السنة الفاخرة ، وتذهبين كما ذهبت
شجرة عيد الميلاد الجميلة ، وبسرعة اشعلت كل الأعواد الباقية في
الحزمة حتى لا تختفي جدتها .

اشتعلت أعواد الثقاب ، فكان لها وهج عظيم لا يفوقه وضع النهار
وبدت الجدة العجوز الطيبة كما لم تبد من قبل ، أطول قامة وأبهى
منظراً ، وأجل مظهراً . واحتضنت الفتاة الصغيرة وطارتا معا . . . وكانتا
تطيران في هالة من الغبطة والجلال ، وارتفعت بها ثم ارتفعت ، حتى بلغت
المكان الذي لا يعرف فيه البرد ولا الجوع ولا الألم . . . لقد دخلتا
القردوس .



وفي الصباح البارد ، وجدت
الفتاة الصغيرة المسكينه قابعة
في ركن من الجدار ، متوهجة
الحدين باسمه الشفتين ، متجمدة
في قبضة الموت ، في آخر
ليلة من العام الراحل . وكانت
شمس العام الجديد تشرق على
الطفلة التي فارقت الحياة ،
وقد جلست هناك بلا حراك ،
وفي حجرها أعواد الثقاب ،
وقد نفذت منه حزمة كاملة .

وقال الناس : « لقد كانت تريد أن تستدفئ تلك المسكينه ، لكن
أحدا لم يعلم بالرؤى الحلوة التي رأتها ، ولا بالاحتفال المجيد الذي
لحيت به الفتاة وجدتها ليلة رأس السنة ! »

الشريحة الرابعة

ان قصة غرامه بريبورج كانت تتسم بطابع المرارة والألم ، فما الذى جعلها تتنكر له ؟ وهل تنكرت له برضاها بالرغم عنها ؟ لقد كان هو فى (فابورج) - بلدها - شاعرا وكاتبا كبيرا من كوبنهاجن ٠٠٠ ولا شك أنه كان فى نظرها يوم ذاك شخصية ضخمة أما فى العاصمة - كوبنهاجن - فقد سمعت بأذنيها كيف يسخر الناس من « شاعرها » وكيف يسميه بعضهم « عمود النور » و « أبو مركوب » ولعلها أدركت انها غير واثقة من حبها له .. أو قد يكون الامر على العكس أى أن هانز أندرسن ، برغم تأكيدات واحتجاجاته ، هو الذى تنكر لها بعد أن خمدت - سرا - عاطفته نحوها ! لقد كانت (ريبورج) فى (فابورج) ، بين أهلها ومظاهرها ثرائها ، « انسانية » فى نظره رائعة .. أما فى كوبنهاجن فلم تكن غير فتاة قروية بسيطة :

• ان قصة « الكرة والخنروف » ترجع الرأى الأول •

الكرة والخدروف

كان خدروف وكرة يقيمان معا بين بقية اللعب فى أحد الادراج . فقال الخدروف (النحلة) للكرة : « لم لا نصبح عروسين ما دمننا نجتمع معا كثيرا ؟ » .

ولكن الكرة - وهى مصنوعة من جلد الماعز الرقيق - كانت تتصور نفسها آنسة عصرية ، فلم تصغ الى هذا الكلام . وفى اليوم التالى جاء الغلام صاحب هذه اللعب الى الدرج فدهن الخدروف باللونين الاحمر والاصفر ، ودق وسطه مسمارا نحاسيا ، وبذلك أصبح له منظر بهيج حينما يدور .

وقال الخدروف للكرة : « انظرى الى ... ما رأيك الآن ؟ ألا أصطحبك لك زوجا ؟ ان كل واحد منا يلائم الآخر ، أنت تقفزين وأنا أدور ، ولن يكون هناك أسعد منا لو تزوجنا . »

فقالت الكرة : « أعتقد ذلك ؟ لعلك لا تعلم ان أبى وأمى كانا خفين من جلد الماعز ، وان فى جسمى قطعا من الفلين . »

قال الخدروف : « ولكنى مصنوع من خشب (المونجا) صنعنى العمدة بيديه ، وكان يملك مخرطة ، فأخذ يسلي نفسه بخرطى ... »

قالت الكرة : « وهل أستطيع أن أصدقك فى هذا ؟ »

فأجاب الخدروف : « أدعو الله ألا ألهب بالسوط مرة أخرى اذا كنت اكذب . »

فقالت الكرة : « انك تقول صدقا ، ولكنى لست حرة ، فاتى فى حكم المخطوبة لعصفور صغير ، فقد كنت كلما ارتفعت فى الهواء أطل برأسه من عشه وقال : « أتتزوجيننى ؟ » وقد وافقت بينى وبين نفسى ، وهذا يقرب ان يكون خطبة ، ولكنى أعدك بشيء واحد ... وهو أنى لن أنساك أبدا ... »

قال الخدروف : « ان هذا سوف يفيدنى فائدة كبيرة » وسكت عن هذا الموضوع فلم يذكره مرة أخرى .

وفى اليوم التالى أخذت الكرة من الدرج ، وراها الخدروف ترتفع فى الهواء كالطير ، وأخذت ترتفع حتى غابت عن الانظار ؛ ثم عادت الى الارض ، لكنها كانت كلما مست الارض قفزت ثانية الى أعلى مما كانت . وقد يكون الحب (بضم الحاء) أو الفلين الذى فى جوفها هو الذى يفعل ذلك . وفى المرة التاسعة لم تعد ، فبحث عنها الغلام فى كل مكان ، ولكنه لم يعثر لها على أثر .

فتنهذ الخذروف وقال : « انى أعلم أين هي ... انها فى عشي العصفور تحتفل بعرسها » وكلما ازداد الخذروف تفكيراً فى هذا ازدادت الكرة ملاحه فى عينيه ، وكلما أحس أنها لن تصبح زوجته ازداد هياماً بها ، لقد فضلت عليه غيره ؛ وهو لن ينسى ذلك أبداً . وأخذ الخذروف يدور ويدور لكنه لم يكف عن التفكير فى الكرة العزيزة التى اخذت تزداد فى عينيه رقة وجمالاً . ومرت السنوات ولكن حبه لم يهدأ أو ينطفىء ؟

وكان الشباب قد ولى عن الخذروف وتقدم به العمر ، ولكنه طلى ذات يوم بالذهب فلم يبد من قبل أجمل مما بدا فى ذلك اليوم ، وهو الآن خذروف مذهب يدور فى شجاعة عظيمة ويدور طوال الوقت . لقد كان هذا شيئاً عظيماً ! لكنه وثب مرة الى أعلى مما ينبغى واختفى عن الأنظار ، وبحسوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه على الإطلاق .

فأين ذهب يا ترى ؟ لقد قفز الى برميل حافل بكل أنواع القاذورات ، بين عمدان الكرب والقمامة والتراب .

وقال الخذروف : « واحسرتاه ! أأكون هنا مرقدى ؟ ان لونى الذهبى سوف يفسد عما قريب . انظروا مع أى نوع من القاذورات سقطت » . ونظر الى عود كرب ملقى على مقربة منه يتملكه الخوف ، ثم الى شئ غريب مستدير يشبه التفاحة ، لكنه لم يكن تفاحه بل كان كرة قديمة بقيت فى هذا المكان عدة أعوام وتشربت للماء .

وقالت الكرة : « شكراً لله . . لقد رزقت أخيراً رفيقاً ذا كفاية يجوز لى ان أخاطبه » . وحدثت فى الخذروف المذهب ، ثم قالت : « لقد صنعت من جلد الماعز الحقيقى ، وحاكتنى يدا آنسه صغيرة ، وفى جسمى فلين ، ومع ذلك فإن يلتفت الى أحد بعد الآن . لقد كنت وشيكة الزواج من العصفور حين سقطت فى هذا المكان البشع ، وبقيت هنا خمس سنوات وأصبحت الآن متشربة بالماء العفن . فانظروا أى بؤس بعد هذا ؟ »

لكن الخذروف لم ينطق ، فقد كان يفكر فى رفيقته التى لبث يندبها هذا الزمان الطويل ، وكلما أخذت صاحبته تقص روايتها أيقن أنها هي بعينها .

وأنت الخادم عندئذ تريد أن تقلب البرميل لكنها صاحت : « مرحى ! ها هو ذا الخذروف المذهب ! »

وأعيد الخذروف الى قاعة اللعب ، واستعمل من جديد ونال الإعجاب كسابق عهده ، لكن شيئاً لم يسمع عن الكرة ، ولم يتحدث الخذروف حتى عن حبه السابق لها ، لأن شعوره نحوها كان قد تبدد ، وكيف لا يكون الحال كذلك وقد مكثت فى البرميل القدر خمس سنوات كاملة وتغيرت كثيراً حتى ما كاد يعرفها حينما لقيها فى البرميل بين النفايات . . .

الفصل الرابع

الشاعر الفيلسوف

- ١ - نفسه الشاعرة
- ٢ - زهرتان من روضة شعره
- ٣ - قبس من فلسفته

الشاعر الفيلسوف

١ - نفسه الشاعرة :

من الأقايصيص الأربع التي تضمنها الفصل السابق - على سبيل المثال - نرى ان شخصية أندرسن وحياته الخاصة قد أسهمت الى حد كبير في خلود أعماله ، ويمكننا القول أننا سواء أكنّا على دراية بأعماله الأخرى أم لم نكن ، فإن أقايصيصه الاسطورية كافية للكشف عن خصائص فنه وروحه .

ولقد عرفنا ان أندرسن بدأ حياته الفنية مبكرا ، ولكن السنوات العشر الأولى منها كانت تنقصها الشخصية ، والاصالة الذاتية . ولم يتأت له ذلك الا منذ سنة ١٨٣٥ . ولقد ظهرت أولى هذه الملامح الخاصة في قصته « خطوات المجد » وكان قد كتبها بالطريقة السهلة الممتعة التي أخذها عن مدرسته (هايبورج) مع تميزها بسحر طبيعي ومرونة لم تصل اليها تلك الجماعة الأدبية . وهذه القصة عبارة عن لمحة هزلية لمجتمع كوبنهاجن في ذلك العهد ، وبها تغير مفاجيء يعودنا الى ارض الاساطير دون ان نحس بأى ارتباك ينتاب قلم أندرسن الرشيق .

وجاءت المرحلة الثانية مع « قصة أم » حيث اختفت الاستطرادات العاطفية والسخرية اللاذعة التي تميزت بها المرحلة الأولى . أما المرحلة الأخيرة فهي المرحلة الذهنية ، وهي التي كتب فيها أندرسن أخلد أعماله ، بل هي التي أخرجت الأدب الدانمركي من النطاق المحلي الى النطاق العالمي .

ومن وراء أية واحدة من هذه المراحل الثلاث نستطيع ان نستشف شاعريه أندرسن وفلسفته ، ولقد كان أندرسن من أولئك الذين يحملون في قرايرهم ملامح الرجل الفطري برغم وجوده في قرن بلسغ من الثقافة والتطور درجه كبيرة . وتمثلت هذه الفطرية في الطغاة الهائلة من النشاط التي كانت تملكه - وهذه من الملامح المميزة لسكان المناطق غير المتمدنية ، ولقد أثار أندرسن بذلك رعب الباحثين واعجابهم . انه لم يكن يعرف الراحة أو الاستقرار قط . كان دائم الترحال في عصر كانت الاسفار فيه موقوفة على أصحاب الملايين أو كبار التجار أو المغامرين . كما أنه أضنى نفسه وأنهكها من أجل انتاجه ، تماما كما فعل بلزاك وكيركجورد . وكذا كان لأندرسن ذكاء الرجل البدائي وفطنته ، وكانت لديه البراعة والمقدرة على خلق مفاهيم جديدة بدلا من استعمال المفاهيم التي كانت في متناول الجميع .

وكانت لأندرسن أحاسيس الرجل الفطري في عنفوانها وتفجرها، فقد كان يرى كل شيء ويتذوقه ويحسه، وتعتبر أقايصيص أندرسن أكثر الأعمال

« المحسوسة » بعد أشعار أوهلنشليجر ، فهذه الاقاضيص تنبض باللون والضوء والحركة في اصالة ومعاناة لا تتأتى الا لموهبة طبيعية غير عادية .

اما حياته العاطفية فكانت من العنف بحيث أرعبت معاصريه ، بل وأرعبته هو أيضا . فلقد ولد أندرسن بحساسية عصبية جعلته يشعر بكل شيء في حدة فائقه ، وترتب على هذا قيامه بتصرفات ، وتقلبات مزاجية أعنف مما هو معهود في الرجل العادي .

والواقع انه كان من رأى معاصريه انه لا علاقة معقولة بين ما يبدو عليه من بهجة غامرة أو ما يكتسحه من يأس أسود وبين الحادثة التي تدفعه الى تلك الانفعالات . فقد كان يبكي فرحا عندما يتلقى - وهو في الخارج - خطابا من أحد أصدقائه بالدانمرك ، وكان يقع في هوة من اليأس عندما يخيل اليه ان الناس قد قسوا عليه ، أو عندما يفشل في أحد أعماله ، أو اذا ضايقه شيء كبير أو صغير .

ويروى عنه أنه بعد أن فرغ من كتابة « قصة أم » امتلأت نفسه بالبهجة ومضى مسرعا نحو عائلة من أصدقائه المقربين ليقرأ عليها القصة بصوت عال . (والقصة تروى حكاية أم اختطف الموت وحيدها) ، ولم يكن أندرسن يدري أن الاسرة التي يقرأ عليها القصة قد فقدت طفلا لها منذ بضع سنوات . وما ان اكتشف اندفاعه الطائش ، حتى نسي تماما قصته وانكفا على قدمي الأم الحزينة وأخذ يبكي معها بكاء مرا .

وأخيرا كان لاندرسن ايمان الرجل الفطري . ويجب ألا يخدعنا كونه قد أخذ عن والده المعالجة الذهنية الناقدة للمعتقدات المسيحية ، فلقد كان أندرسن في ايمانه وفي ارتداده - على السواء - فطريا .

ويمكن أن ندرك ملامح هذا الايمان الفطري اذا عدنا بذاكرتنا الى الايام التي كان يتدرب فيها أندرسن على الغناء على يد « سيبوني » . وكان أندرسن يريد الإقامة في أحد « البنسيونات » في (أولكجاد) ، فأصرت صاحبة « البنسيون » على ايجار شهري قدره ٢٠ جنيها في الوقت الذي لم يكن لدى اندرسون سوى ستة عشر جنيها . ويروى أندرسن هذه الحادثة فيقول : « .. وأصرت المرأة على موقفها ثم تركتني وغادرت الغرفة وقد استولى على حزن شديد وانهمرت الدموع غزارا من عيني ، وفجأة شاهدت صورة لزوجها الراحل معلقة على الجدار فوق احدى الارائك ، فمضيت اليها كالطفل وبللتها عن آخرها بالدموع المنسابة من عيني ، حتى يدرك الرجل - هكذا تصورت - الى أي مدى أني تعس وحزين ، فيحمل زوجته على النزول عن صلابتها فتقبل المبلغ الذي كان في جيبى . ولا بد ان المرأة فهمت أنه من غير الممكن أن تحصل على أية زيادة أخرى، لانها بمجرد أن عادت أخبرتني بالموافقة على ايوائى بالسته عشر جنيها » .

هكذا كان أندرسن : كان فطريا في ذكائه ، وفي احساسه ، وفي ايمانه . وعلى عائق مثل هؤلاء الناس - الذين ينطوون على آثار من الفطرة الخاء حضارة متطورة - يقع عبء التقدم الثقافي . انهم هم المخترعون ، وما على غيرهم الا ان يجنى ثمرة ما وصلوا اليه . وان خط النضال الذي يسسرون

عليه ليعيشوا بالاساوب الاكثر طبيعة بالنسبة لهم هو المضمون الرئيسى .
لقصص حياتهم ، وهذا هو ما يوحى بأنهم شواذ غريبو الاطوار .

وتكمن عظمة اندرسن فى قبوله لكل ما منى به من غرابة وشذوذ على
انها هبة من الله ، كما تكمن أيضا فى حقيقة احساسه بأنه اصطفى ليكون
شاعرا فلقد كان يعرف قدر نفسه . وبينما نراه قد ضحى بكل شيء من أجل
رسالته ، فان كثيرا من معاصريه كانوا يعتبرون هذه الخاصية بالذات نوعا
من الغرور . وربما كان ذلك صحيحا فى بدء حياته ، ولكنه تطهر من أى
احساس بالغرور فيما بعد . ويرجع الفضل فى هذا أولا الى (أورستد)
أستاذه الذى قاده الى نبع الفكرة الصافى . لقد جعله أورستد يحس بأن حياة
المرء المصطفى يجب أن تكرر من أجل الفكرة التى اصطفى من أجلها .

وجاءت بعد (أورستد) (جينى لند) فأعطته درسا مجيدا حينما كشفت
له ان الفنان يجب ألا يعيش الا من أجل رسالته ، ناسيا كل شيء حتى نفسه .

ووعى أندرسن كل هذا ، فتعلم تلك الحياة بعد ذلك . وبرغم اصراره ،
وقوة شخصيته ، وكبريائه التى كان يبدو بها - كشاعر - أمام الناس ،
فانه أمام الله كان يذوب تواضعا وطفولة .

ان حياته الروحية كانت تتسم بميزتين أساسيتين الى جوار ملكاته
الفنية وموهبته الشعرية :

وأولى هاتين الميزتين انه كان يثق ثقة قاطعة فى (الملاك) الذى يحرس
عبقريته ، وفى ان هذه العبقرية لن تتخلى عنه على الاطلاق .

أما الميزة الاخرى فهى تلمذته على الطبيعة التى لم يكن يكف عن الذوبان
فى أجوائها والتعبد فى محرابها منذ أن كان يهرع بخيمته الصغيرة التى صنعها
من أحد أثواب أمه نحو غابات (أودنز) ، الى ان أخذ يجوب آفاق أوروبا ،
ويقف مذهولا أمام مفاتيح الطبيعة الخلافة .

وهكذا فان أندرسن يبدو بأصدق صورة فى هاتين الحالين : حينما
ينصت الى نداء عبقريته ، فيندفع غير مبال نحو تحقيق آماله ، وحينما يسلم
حواسه الى الطبيعة وينقلب بين أحضانها طفلا صغيرا .

ولم يحدث أن تعارضت القوتان أو اصطدمتا ، بل على العكس كونتا
حلفا مقدسا ، وجعلتا من أودنز ، القرية الصغيرة ، كعبة يهفو اليها الصغار
والكبار على حد سواء فى جميع أنحاء الدنيا .



٢ - زهرتان من روضة شعره

أرض الوطن

عفى الدانمرك ، أرض البساطة ، كان مولدى ...
وفى ثراها العذب تعمقت الجذور التى منها استمددت كل كيانى ...
دفيا لغة الوطن ، ان رنينك عذب رخيم ...
سوليس كرنين لغة الوطن (بلسم) للنفوس ...

ويا ساحل الدانمرك الباسم
حيث تحتشد قبور الفايكنج المحاربين

ومن حولها تزهو البساتين ..
وتتجمع شجيرات حشيشه الديثار ..
انك .. أنت التى أحبها ، يا أرض الوطن الحبيب ..
أين يتألق الصيف فى المروج الزاهرة
أشد مما فى بسمات الساحل البهيج
أتبين جمال الظل الواقع على حقل البرسيم وقد غمره ضوء القمر
من جمال شاطئ الوطن ..

فيا ساحل الدانمرك الباسم
حيث يرفرف علم الوطن الغالى

انه هبة من الله .. الذى منحك الخلود
انك .. أنت التى أحبها يا أرض الوطن الحبيب ..
غزت أرض الانجاييز يوما وحكمت بلادهم ..
وبلاد الشمال كلها .. ولكنهم يقولون انك قد ذويت الآن ..
وأصبحت أرضا صغيرة ، ولكن فى أنحاء المعمورة ..

تتردد أغاني بابلك (١) .. وتقف تماثيل فنائك (٢) ..

فيا ساحل الدائمرك الباسم
ان المحراث يخرج من باطن أرضك الكنوز الذهبية ..

جعل الله مستقبلك يا وطني كذهب أرضك
فانك .. أنت التي أحبها ، يا أرض الوطن ..
فيا أرض البساطة التي كان فيها مولدى ..
وفى ثراها تعمقت الجذور التي استمددت منها كياني ..
برنين لغتها العذبة الرخيم .. لغة أمى ..
وقد طرب فؤادى مثل موسيقاها
ويا ساحل الدائمرك الباسم
حيث أقام البجع أو لاره

وفى جزائرك الخضراء يجد قلبى الراحة والهدوء ..
فانك انت التي أحبها يا أرض الوطن ..

(١) الشاعر الدائمركى أو هلتيلانجر

(٢) المثال الدائمركى تورفالدين

الطفل المحنض

(من وحى الايام الكثيرة التى عاشها اندرسن فى بيت ميسلنج)

أماء .. اننى متعب .. وأريد الآن أن أنام
دعيني أستغرق فى النوم ، وأشعر بقربك منى ..
ولكن لا ينبغي أن تبكى .. أرجوك .. هل تعديننى ؟
انى لأشعر بدموعك الحارة تنثال على وجهى ..
الجو هنا بارد ، والرياح فى الخارج جد عاصفه ..
ولكن فى الاحلام .. آه لشدة ما احب ما فيها ! ..
فيها أستطيع أن أرى أحبابى من الملائكة الصغار ..
عند ما أغلق عيني الغافيتين .. وأستريح ..
أماء .. أنظري .. ها هو ذا (الملك) .. هنا .. بجانبى
هل تسمعين تلك النغمات العذاب تنساب ..
هل ترين أجنحته .. جميلة .. بيضاء ..
يقينا .. ان الله هو الذى منحه اياها ..
وان الاطياف الخضراء والحمراء والصفراء تنتشر حولى ..
انها الازهار التى تنثرها الملائكة احتفاء بى ..
ترى ، هل سيكون لى أجنحة وأنا على قيد الحياة ؟
يبدو يا أماء ، ان هذا لن يكون الا بعد الوفاة ..
أماء .. لماذا تضميننى بهذه القوة الى صدرك ؟
لماذا تضعين خدك هكذا على خدى ؟
ولماذا أشعر بخدك فى آن واحد مبللا .. ملتهبا ؟
أماء .. لسوف أبقى معك .. دائما !
نعم .. ولكن .. ما هكذا تسرفين فى التنهيدات ..
فانك حين تبكين سأكبى .. أترين
الى أى حد أنا متعب ؟ .. ان عيني توشك ان تنعسا
أماء .. أنظري .. ان (الملك) جاء يقبل منى الجبين ..

٣ - قيس من فلسفته

كانت الرحلة التي بدأت بأندرسن وهو غلام فقير وانتهت به مستشارا للدولة رحلة حافلة بالأحداث، خبر فيها مختلف الطبقات الاجتماعية . فعرف في طفولته عامة الشعب الذين يعيشون يوما بيوم ، بعيدين عن الاضواء ؛ قابعين في الجانب المهمل من الانسانية . ولم تنسه الاحداث التي مرت به ذلك الوسط الذي فتح عينيه عليه لأول مرة ، بل ظل مشدودا اليه حتى اذا ما تملك ناصية القلم أخذ يدافع عن بيئته الاولى ويكشف للناس عن كوامن الخير فيها .

ولقد كان من مميزات ذلك العصر التطلعات السامية الخيالية وعبادة الابطال القدامي للجنس الشمالي ، فكان عصرا في حاجة الى ناقوس يوقظ جوانب العطف فيه ، وجاء أندرسن ليخلق « ابطالا » جديدا من أولئك المهملين القابعين وسط الظلال .

وما ان نزح أندرسن الى كوبنهاجن حتى استطاع ان يرقى الى أعتاب الطبقة المتوسطة فأخذت تتبدى له أخطاءها يوما بعد يوم ، ثم استطاع بعد ذلك أن ينزل ضيفا على كثير من الارستقراطيين في الداخل والخارج . وفي كل الاوساط التي تقلب فيها أندرسن صاحبته تجاربه وخبرته بالطبيعة والحياة .

على ان أندرسن حينما أخذ يلقي الضوء على عيوب الناس وأخطائهم ، لم يكن يخرج هذه الشخصيات عن دائرة الجنس البشري . فلم يكن أندرسن في سخريته ساخرا وحسب ، مثل بعض الممارسين لهذا النوع من الكتابة . انه حين صور لنا فتاة يكاد يقضى عليها البرد ليلة عيد الميلاد بجوار نافذة منزل ينبعث منه الدفء والشبع والسعادة - كان يصور كل ذلك بدون أى هدف سياسى ، وانما أراد أن يقود الناس من أيديهم الى أعماق أعماق انسانيته . ولقد ظل أندرسن في جميع مراحل صراعه على اتصال دائم بالحياة ، قابضا على ادراكه المتواضع بأن الحياة معجزة وستظل هكذا دائما .

ولقد أخبرنا أندرسن بكل ذلك في قصصه الاسطورية . وبعض هذه القصص يتصل بالناس مباشرة ، وبعضها صور متحركة للحياة اليومية مثل قصة « بائعة الثقاب الصغيرة » وهناك قصص أخرى تؤدي الاشجار والأزهار والحيوانات والجمادات الادوار الرئيسية فيها على حين يبدو الانسان في المنظر الخلفى أو لا يبدو على الإطلاق ، ولكن هذه الاشياء أيضا تلبس ثوب الحياة ، فهي تتحدث وتفكر مثل البشر تماما . على أن مظهرها الخارجى وأفكارها تتوقف بالتأكيد على الظروف التي تعيش فيها . فالديجاج

والبط في قصة « البطيطة القبيحة » ، لا يعرف عن العالم سوى أنه فنام صغير ، ولا شيء بعد ذلك الفناء على الإطلاق . أما شجرة الصفصاف فلا تدري من الحياة أكثر مما تستطيع رؤيته من مكانها ، وهي تبني استنتاجاتها من التجارب التي طرأت لها في هذه الحدود .

ومع ذلك فإن الطريقة التي تتناقش فيها هذه الشخصيات لا تختلف عن طريقة الإنسان . ولهذا نستطيع أن نقول : أن أندرسن حينما كان يورد هذه الأشياء كشخصيات حية إنما أراد أن يرمز بها إلى أفراد فعليين صادفهم في حياته . أو بمعنى آخر كان أندرسن يقدم صورة كاريكاتورية للنماذج الحية التي عاصرها : فهو - مثلا - حينما كتب عن شجرة الصفصاف أراد أن يتحدث عن أولئك الناس ذوي الطموح الذي لا يشبع ، أما الدجاجة التي كانت في بيت السيدة العجوز حيث ضلت البطيطة القبيحة فلم تكن سوى « تشخيص » للطبقة المتوسطة بكل ما تتسم به من حدود .

ولقد كان أندرسن يعلم أن هناك أناسا عظاما ، وأناسا صفارا ، الأغنياء والفقراء ، السعداء والتعسين ، القانعين وغير القانعين - وأنه لابد لكل نمط من هذه الأنماط أن يعيش حياته الخاصة بالأسلوب والعادات التي تتناسب مع تلك الحياة ، وأن لكل حكمه الخاص على الحياة والعالم . ويرجع ذلك كله إلى الميلاد والبيئة التي تحيط بكل فرد دون أن يكون في مقدورنا أن نقول : أن فلانا أصاب واخطأ الآخرون ، فمن الطبيعي جدا أن يكون الصياد الصيني وفتاة المطبخ الصغيرة التي تعيش في قلب الغابة بجوار البحيرات العميقة الصافية من الطبيعي أن يكون تفكير كل منهما واحساسه مختلفا تمام الاختلاف عن نظيرهما لدى رجل البلاط الذي يعتبر الاتيكت والمركز من أهم ظواهر الحياة وخطرهما . ومن الطبيعي أيضا أن تكون لبائعة الثقب الصغيرة - التي كانت جدتها هي الأمل الوحيد لها في الحياة قبل أن تموت - من الطبيعي أن تكون لها هي الأخرى مفاهيم مختلفة عن مفاهيم الأميرة التي ضايقتهامصة تحت الحشيات العشرين التي كانت تنام عليها .

وليس معنى ادراك أندرسن أن لكل إنسان طريقة في الحياة ، أن الشاعر كان مصابا باللامبالاة ، ولكنه كان يضيق بأولئك الذين لا يعترفون بالقيم المختلفة التي تزخر بها الحياة . وهو يعني « معشر الماديين » الذين أهدروا كل ما لا يدور في فلكهم من أهداف واتجاهات ومثل . ولم يكن أندرسن يترك أية فرصة للهجوم بقوة على أولئك الناس ويتضح هذا الهجوم سافرا في « البطيطة القبيحة » .

وتتضمن القصص الأسطورية فوق ذلك بعض الأفكار الفلسفية العامة . فلقد أدى التمرج الذي أصاب الخط البياني لحياة أندرسن إلى إدراكه أسر المنخفضات والمرتفعات التي تمتلئ بها الحياة . وفي قصته « البطيطة القبيحة » يقول لنا أندرسن : إن العبرة بالنهاية ، وكل شيء سيتهى بأفضل الحلول برغم الظلام الذي يحف بالطريق . ولقد كرر هذا المعنى في عدد آخر من قصصه . ولكن الشاعر كان يدري

أيضا ان هذا ليس هو كل شيء في الحياة ، وأن العالم به ظلم وأحزان أيضا .

وفي « قصة أم » يقدم لنا صورة مؤثرة عما تأتي به الأيام أحيانا من قسوة لا حدود لها ، وكيف أن عطف الأم على الرجل العجوز كان جزاؤها سرقة لابنها ، وكيف طلب « الليل » و « شجرة الشوك » من الأم المسكينة أبشع ما يطلب من إنسان :

فقد طلب الليل منها أن تغنى كل الأغاني التي كانت الأم تغنيها لطفلها على حين أن قلبها مكلوم على فراقه .

أما شجرة الشوك فقد طلبت من الأم أن تضمها الى صدرها بشدة حتى يدوب عنها الجليد وتورق من جديد .

وبعد أن نفرغ من قراءة تلك القصة يعترينا احساس بأن أندرسن المتفائل قد انقلبت لديه المفاهيم وضاعت كل الثقة التي كانت تفتح بها كتاباته ، ولكن أندرسن لم يكن كذلك ، لأنه كان على علم بكل الظروف التي يمكن أن تقدمها الحياة لنا ، كما أن النهاية التي انتهت اليها « قصة أم » لم تكن تخلو من بعض العزاء والثقة ، فبرغم أحزانه وخيبة آماله كان يحتفظ دائما حتى النهاية بإيمان لا يتزعزع بجوهر الحياة الخير ، وبجمالها وبهجتها . وكان يؤمن بأن الذين يستعدون لتقبل نعم الحياة كبيرها وصغيرها لن تخيب آمالهم أبدا - وأنه في الامكان أن تنقلب الأحزان انى نعمة - فقط لو قبلناها بالطريقة السليمة .

ولعل أهم ما في فلسفة أندرسن هو إيمانه بأن الكفاح - وإن كان طريقا داميا - لا ينتهى مطلقا إلا بأحسن الجزاء ، بصرف النظر عن الثمرة أمباشرة جاءت أم عن طريق غير مباشر ، ولتفسير ذلك أقول ان أندرسن كان همه منذ الطفولة أن يكون من أعلام المسرح ، وحفيت قدماه ليعتلى الخشبة الخالدة مفسيا أو ممثلا ثم كاتبا مسرحيا ، ولكن كل آماله انتهت الى لا شيء . فانكفا يجرب حظه في الكتابة ، فكتب الشعر والقصص وكتب الاسفار والخواطر ، ولكن الحظ لم يواته هذه المرة أيضا ، وأخيرا - وبعد ضياع عدة سنوات من عمره - وجد الثمرة فيما لم يظن له على بال مطلقا ! وذهل أندرسن أول الأمر حين وجد أن شهرته قد جاءت عن طريق أقاصيص الأطفال ... ولكنه سرعان ما أدرك أن ذلك لم يكن محض مصادفة ، بل كان الجزاء الأوفى على نضاله المستميت في سبيل المجد والشهرة برغم اختلاف الطريق الذي حده لنفسه عما قدرته له العناية الالهية .

حقا ان حياة هذا الكاتب الدانمركي حافلة بالجوانب التي تبين للشباب طريق الكفاح في الحياة والاتجاه نحو المجد والمثل العليا ، وزاخرة بالصور الرائعة التي توضح لنا كيف يمكن قوة الإرادة والصبر على آلام الحياة ، والتشبث بالهدف المرموق ، أن تحقق للإنسان كل ما يرجو ، بل أكثر مما يرجو .

وثمة لفنة أخرى لا تقل أهمية كشف لنا عنها أندرسن بحياته وآلامه وجهاده المرير ، والواقع أن هذه اللفنة ليست مجرد تجربة

صغيرة بل انها قاعدة انسانية هامة أصبحت - بعد أن سلط اندرسن الضوء عليها - نصب عيني كل فنان يريد أن يصل الى الكمال الفنى .
وهذه القساعدة هي : « الكمال الفنى = موهبة + علم » ؛ فلقد كان اندرسن موهوبا منذ صغره ، واسع الخيال ، شديد الرغبة فى الوصول الى « الشهرة والمجد » . وقد ظن أن مواهبه سوف تغنيه عن الدراسة المنتظمة ، وعن الاقبال على مناهل العلم والثقافة .. فرفض أن يلتحق بالمدرسة فى صغره ، وتعالى أيضا عن اتخاذ أية مهنة للكسب ، ومضى يشغل وقته بنظم الاشعار وتأليف القصص المسرحية بأسلوب ردىء وطريقة بدائية . ولما وصل الى الدانمرك ، ظن أن أبواب المجد تتفتح أمامه ، ولكنه لم يلبث أن أفاق من أحلامه على رنين النصائح التى كانت تحيط به من كل مكان ، وكانت هذه النصائح تتركز فى كلمة واحدة : « العلم » . ولم يأبه اندرسن أول الأمر ، ولكن الواقع الذى جابهه أقنعه باخلاص الناصحين . وبعد أن تذوق لذة العلم ورأى ظلمات الجهل وهى تنقشع تدريجيا ، عاما بعد عام ، أمام نور المعرفة ، أدرك أنه كان غافلا بحق ، وأخذ ينهل من ينابيع العلم متداركا ما فاتته طوال عمره .

هكذا كان اندرسن : عزيزة كالسيف ، وايمانا لا يهتز بمواهبه وبالعباية الالهية ، ثم تواضعا جعله يرضخ وهو فى السابعة عشرة من عمره لرغبة ثلة من الناصحين الأمناء فدخل مدرسة كان أكبر تلاميذها لا يصل برأسه الى مرفقه .

ولهذا فقد كانت فلسفة اندرسن - فاسفة الاصرار النابع عن الايمان بالنفس وبالله - صريحة ومستقيمة ، لا هى بالشاذة أو الملتوية . انها فلسفة نموذجية لكل جيل يبحث عن القدوة الحسنة . وهى الفلسفة التى جعلت طاغور يخاطب أهل الدانمرك عندما زارهم يوما بقوله : « لماذا تريدون أن يزداد عدد اسكان عندكم .. يكفى أن يكون هانز اندرسن منكم .. » .

الفصل الخامس

أندرسن حول العالم

لا جدال في أن هانز كريستيان أندرسن يتمتع بشهرة عالمية ، فلقد أصبحت أعماله - ابتداء من الطبقات الكاملة لكل ما كتب ، الى عدد محدود من اقصيصه الاسطورية - مقروءة بأكثر من ٦٠ لغة مختلفة . ولقد ترجم أندرسن الى جميع اللغات الأوروبية بلا استثناء . وعن طريق هذه اللغات التي كان يتمتع الناطقون بها بالسيطرة الاستعمارية على قارتي آسيا وأفريقية منذ القرن الماضي حتى قبيل الحركات التحررية الأخيرة ، عرفت اللغات الآسيوية والأفريقية شأن أندرسن ، حتى لغتا الكولولو الأفريقية والاسبيرانتو وغيرهما .



في هذا المنظر يصور أحد مشاهد « قصة أم » ؛ ولقد ظهر في الطبعة البنجابية للقصة ضمن مجموعة من قصص أندرسن صدرت في كلكتا سنة ١٩٣٥ - ولا يخفى على التاريء الشخصية الهندية للرسم .

« الأم تفهم قلب صدرها شجرة الشوك »

هذا المنظر يصور أحد مشاهد « قصة أم » ؛ ولقد ظهر في الطبعة البنجابية للقصة ضمن مجموعة من قصص أندرسن صدرت في كلكتا سنة ١٩٣٥ - ولا يخفى على التاريء الشخصية الهندية للرسم .

ولقد انتشرت شهرة الكاتب الدانمركى الكبير مثلما تنتشر الدوامة
التي يحدتها القاء حجر فى الماء . فترجم أول ما ترجم الى الألمانية ، ثم
السويدية ثم الهولندية قبل عام ١٨٤٠ . ثم ترجم فى روسيا وانجلترا
والولايات المتحدة حوالى عام ١٨٤٥ . وبعد ذلك بقليل ترجم فى فرنسا
وبولندا وتشيكوسلوفاكيا . وفى سنة ١٨٦٠ ترجم فى اسبانيا وايطاليا
ثم انتقل منهما بالتدريج الى بلاد ابلقان البعيدة كافة . ورغم ان



أحدى الطيمات اليلبية لقصة « البططة القبيحة » ،
وينبؤ الطلع اليلبى وانصعا فى الرسم .

معرفة آسيا لاندرسن معرفة طليقة ومبعثرة فانه يجدر بنا أن نقول :
ان اليابان الحديثة تهتم به اهتماما كبيرا .

واذا أردنا أن نستقصي حظ لاندرسن في البلاد المتاخمة للدانمرك
والتي عكفت على ترجمته أكثر من أي مكان آخر ، فلا بد أن نذكر أن
أغلب المترجمين قد اهتم أولا برواياته ، ثم بأقاصيصه الأسطورية .
ولقد كان بعض هذه الترجمات رديشا والبعض الآخر جيدا غير أن كليهما
كانت على أية حال أساسا لغزو لاندرسن للغات الأخرى كافة .



« البليطة القبيحة » أيضا - في الطبعة الاسبانية

وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأ التصرف - على نطاق واسع -
يبدو في كتابات لاندرسن ، وبرغم أن قلوب الأطفال قد تفتحت له في
جميع أنحاء العالم ، فانه فقد بسبب هذا التصرف مركزه كعلم من
أعلام الأدب وبدأ الاحترام لمكانته الفنية يضمحل شيئا فشيئا .

ولقد كان لهذا التصرف في أقاصيص أندرسن ما يبرره ، فقد بدأ من الصعب على أية حال ثقل اللمسات الدقيقة التي اتسمت بها طريقة أندرسن الجديدة في الكتابة ، وكذا التعبيرات القوية التي كانت من خصائص اللغة الدانمركية - كان من الصعب نقل ذلك الى اللغات الأخرى .

ولسوء الحظ ان « الحدودية » لم تكن هي كل شيء في أقاصيص أندرسن . وفي هذا المعنى يقول « كاج مونك » الناقد الدانمركي : « ان التأليف الأدبي نوعان : أدب لتسلية القارئ ، وهو سريع الزوال ، وأدب واقعي عميق له طابعه الباني في الحياة ، ويمكن أن يكون في الوقت نفسه مسليا . وقد يبدو لأول وهلة ان الأقصوصة الأسطورية لابد ان تكون من نوع الأدب الأول ، ولكن أقاصيص أندرسن تمتاز بالطابع الواقعي ، وبالأصالة والعمق أيضا ، وذلك برغم ما فيها من تهاويل وزخارف .. انها الحياة .. الوجود .. الخلود .. وبرغم ما يبدو فيها من خفة وبساطة ، فهي عميقة جادة » .

بهذا نرى انه ما من كاتب أسوأ اليه بسبب ترجمة كتبه كما حدث لأندرسن . فأسلوبه يمتاز بالقوة والإيجاز ، وبصلابة قد تبدو - أحيانا - عنيفة تند عن أفهام الصغار .. وان في عباراته مزيجا من الفكاهة ، والتهكم والمرح ، وقد تصل في قوتها الى حد التوقد والشاعرية ولكنها جافة دائما . ولهذا فان ترجمة أعماله الأدبية فقدت الكثير من أسلوبه . فليس فيها طابع القوة والجفاف ، وليس فيها ذلك المزيج من الفكاهة والتهكم والمرح .

وفوق ذلك فقد عمد المترجمون الى انتزاع الفقرات الوصفية التي تخلو من الحركة ، ثم انهم لم يكتفوا باستئصال كل التفاصيل التي يصعب فهمها على غير الدانمركيين ، بل انهم رفعوا كل التفاصيل على الإطلاق ، وتمادوا في هذا حتى نزعوا أيضا بعض الأحداث الهامة بالنسبة لهيكل القصة . ولقد وصلت بعض قصص أندرسن - بعد ترجمتها - الى عشر حجمها الأصلي الذي كتبه أندرسن .

واستمر في القرن الحالي هذا الهدر لقيمة أندرسن الأدبية برغم ظهور قلة من المترجمين الأمناء الذين أضنوا أنفسهم في تصحيح هذا الخطأ الكبير . وما زالت قصصه الأسطورية - دون سائر أعماله - هي التي تحظى بتسليط الضوء عليها في جميع أركان الدنيا . أما رواياته وكتب أسفاره وتراجمه الذاتية وخطاباته فما زالت ذات عالم محدود .

ان أندرسن من ناحية « الكم » يحتل مكانة لا ينازعه فيها سوى الكتاب المقدس وشيكسبير .. أما من ناحية « الكيف » فهو ما زال في حاجة الى مزيد من الاعتراف والتقدير ليصبح احد اعلام الأدب العالمي وليس مجرد كاتب ناجح لأقاصيص الأطفال ، أو كما يطلق عليه ، « البطل العالمي لأقاصيص الأسطورية » .

مصادر الكتاب

المصادر الاجنبية

1. Hans Christian Andersen, his life and work by various writers. (Copenhagen, 1955)
2. Six Fairy Tales by H. C. Andersen ; ed. by Bo Gronb-
eech and Eric Dal. (Copenhagen, 1955)
3. Everyone's History of French Literature by Firmin Roz.

المصادر العربية

- ١ - هانز كريستيان أندرسن ، تأليف رومر جودين ، ترجمة
حسين القباني .
- ٢ - أقاصيص هانز أندرسن ، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي
- ٣ - أساطير من الشرق والغرب تأليف سليمان مظهر .
- ٤ - بعض المقالات المتفرقة .



١٥٧ شارع عبید - روض الفرج

تلیفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦



٦٥٧ شارع عبید - روض الفرج

تلیفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦

Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية



0246285

الثلثون ١٠ قروش

العدد ٢٣